

نموذج تطبيقي

للعطاء الإسلامي للحضارة الإنسانية

في المجال التاريخي

كتاب ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ)

"عيون الأنباء في طبقات الأطباء"

نموذجاً

obeikandi.com

تمهيد:

يهتم هذا القسم من البحث بالتطور التاريخي لتعليم الطب في مصر بصفة خاصة وفي تاريخ الحضارة الإسلامية بصفة عامة اعتماداً على كتاب ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) المسمى «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» الذي يكتسب أهميته من كون مؤلفه نفسه كان طبيباً وابن طبيب ومارس الطب تعلماً وتعليماً وعاش في أزهى مراحل النهضة العلمية العربية، إذ عاش معظم عمره في عهد الدولة الأيوبية وشهد السنوات العشر الأولى من الدولة المملوكية، وكان ذا صلات عريضة بأطباء عصره، وقد سجل في كتابه كثيراً من مظاهر التقدم الذي وصل إليه هذا العلم.

وإيماناً بأن دراسة التراث العلمي العربي - من الوجهة التربوية - ما تزال بحاجة إلى مزيد من الدراسات، اهتم الباحث باستعراض مراحل تعليم الطب السبع التي تشبه مستويات دراسته حالياً من حيث الترتيب المنطقي للمعرفة العلمية، كما اهتم بتحليل طرق التدريس التي كانت مستخدمة ، واستعرض إلى جانب ذلك دور الترجمة من اللغات الأخرى في تطوير التعليم الطبي.

حياة ابن أبي أصيبعة وعصره :

يرى الكاتب أن التمثيل للعطاء الإسلامي الحضاري في مجال التأريخ يقتضي النظر المفصل في واحد من أهم مؤلفات مؤرخي المسلمين ، وقد وقع اختيار الكاتب على ابن أبي أصيبعة مؤرخاً للتعليم الطبي. ويمكن صوغ مشكلة البحث في التساؤل الرئيسي التالي:

- إلى أى حد استطاع ابن أبى أصيبعة التأريخ لتعليم الطب خلال عرضه لتراجم الأطباء فى كتابه «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء»؟.

ويمكن أن تتفرغ عن هذا السؤال الأسئلة التالية :

- ١- من هو ابن أبى أصيبعة وما دوافعه لوضع هذا الكتاب؟.
- ٢- كيف أرخ ابن أبى أصيبعة لتعليم الطب فى البلاد المختلفة؟.
- ٣- ما دور الترجمة فى تطور تعليم الطب؟ ومن هم أشهر رجالها وما آثارها التربوية؟

٤- ما أهم مراحل دراسة الطب؟

٥- ما أهم طرق التدريس التى كانت مستخدمة فى تعليم الطب؟

الدراسات السابقة حول ابن أبى أصيبعة :

دراسة عبد الصبور شاهين^(١) . هى الدراسة الوحيدة- فى حدود علم الباحث- التى تناولت شخصية ابن أبى أصيبعة. وأثره التربوى وشعره وتقع فى سبع عشرة صفحة. ومن قراءتها اتضح للباحث ما يلى :

١- أن الكاتب لم يتعد مقدمة «عيون الأنباء» الذى يقع فى ثمان وستين وسبعمائة (٧٦٨) صفحة من القطع الكبير إلا قليلا جدا.

٢- أنه وضع عنوانا هو «منهج ابن أبى أصيبعة» واكتفى تحت هذا العنوان بنقل فهرس الكتاب من مقدمة مؤلفه التى نقل منها جزءا أيضاً.

٣- أنه كرس ثلاث صفحات من صفحاته السبع عشرة لدراسة شعر ابن أبى أصيبعة مع عدم حاجة مقالته إلى هذا. فضلا عما أتخم به بقية الصفحات من استشهادات شعرية كانت تطول أحيانا.

٤- والأهم من هذا كله أنه تابع دائرة المعارف الإسلامية ونقل عنها نقلا دون أن يجشم نفسه مشقة البحث فكرر بذلك أخطاء المستشرقين الذين كتبوا الدائرة.

أولاً: حياة ابن أبي أصيبعة وعصره :

إن المعلومات التاريخية المتاحة عن شخصية ابن أبي أصيبعة وحياته بالغة الندرة ولولا أنه كان يستطرد من حين لآخر في ثنايا ترجماته لبعض معاصريه فيذكر بعض المعلومات عن نفسه، لولا ذلك لتعذر معرفة الكثير مما هو معروف عنه حالياً.

وربما كانت ندرة المعلومات حول حياته، هو السبب وراء إجماع الكثيرين ممن أرخوا له أو تناولوا شخصيته عن إبراز صورة متكاملة لتطورات حياته.

المصادر التي اعتمدنا عليها :

وفى سبيل رسم صورة أقرب ما تكون إلى واقع حياة ابن أبي أصيبعة فإن الباحث استقرأ المصادر التي أتاحت له وعكف عليها تحليلاً ومقارنة ونقداً حتى استطاع رسم صورة تطورات حياته على النحو الذى سيرد بعد قليل مشيراً فى ثنايا ذلك إلى بعض ما وقع فيه من أرخوا له من أخطاء. وهذه المصادر هى : (مرتبة ترتيباً زمنياً من الأقدم إلى الأحدث):

- ١- كتابه موضوع الدراسة (٢) .
- ٢- وفيات الأعيان لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ (٣).
- ٣- البداية والنهاية لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ (٤) .
- ٤- النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤هـ (٥) .

٥- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ (٦) .

٦- دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين (٧) .

وتجدر الإشارة إلى أن الباحث اعتبر دائما أن ما ذكره ابن أبي أصيبعة عن نفسه في ثنايا كتابه أكثر مصداقية مما رواه عنه من أرخوا له، كما اعتبر أن ابن خلكان أكثر مصداقية ممن جاءوا بعده لأنه كان معاصرا له كما أشار في ثنايا كتابه الشهير «وفيات الأعيان» .

عصر ابن أبي أصيبعة :

كانت مصر قد خضعت عمليا لسيطرة صلاح الدين الأيوبي منذ عام ٥٦٤ هـ على الرغم من وجود العاضد الخليفة الفاطمي المريض، إلا أن صلاح الدين أسقط الدعاء للخليفة الفاطمي ابتداء من سنة ٥٦٧ هـ معلنا بذلك قيام الدولة الأيوبية في مصر فقط. ثم عالج علاقاته بنور الدين زنكي حاكم الشام بالدبلوماسية لأن مصر كانت في الواقع تابعة لمملكته كما كان صلاح الدين أحد قواده ، واستمر ذلك حتى وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ وتنازع خلفاؤه ملك الشام حتى ضعفوا مما هيا لصالح الدين الفرصة للسير إلى الشام وإخضاعه لنفوذه ، ثم استولى بعد ذلك على سواحل شمال أفريقية حتى مدينة قابس في تونس، ووطد ملكه في بلاد النوبة والسودان ، ثم دانت له اليمن والحجاز .

وتعد فترة حكم صلاح الدين من (٥٦٧ - ٥٨٩ هـ حيث توفي) هي العصر الذهبي للحكم الأيوبي وبوفاته تقطعت مملكته.

- فقد تولى ابنه الأفضل السلطنة العامة إلى جانب حكمه لدمشق وجنوب سورية.

- وتولى ابنه العزيز حكم مصر.

- وتولى ابنه الظاهر حكم حلب.
 - وتولى أخوه العادل العراق.
 - وتولى آخرون من أقاربه حماه، وحمص، وبلبك، واليمن.
- وفيما بعد توسع أخوه الملك العادل على حساب الآخرين ، فضم إلى ملكه ملك دمشق سنة ٥٩٢هـ ثم مصر سنة ٥٩٦هـ وظلت حلب حتى سنة ٦٥٨هـ خاضعة لذرية صلاح الدين.

وبعد أن سقطت مصر في يد الملك العادل و وفاة الملك الأفضل حاكم دمشق، عادت مصر لتصبح من جديد هي مقر الزعامة العامة للحكم الأيوبي حتى سنة ٦٤٨هـ حين بدأ المماليك الذين كانوا قد كثروا في مصر وتوطدت مراكزهم، يتطلعون إلى الحكم ، وتم لهم ذلك بقتل توران شاه سنة ٦٤٨هـ ، وتولى شجرة الدر.

وباستيلاء المماليك على مصر انفصلت دمشق عنها وأصبحت تابعة لحاكم حلب حتى سنة ٦٥٨هـ حين اكتسحها المغول الذين تمكن المماليك من القضاء عليهم في معركة عين جالوت. وبذلك عادت حلب ودمشق مرة ثانية تحت حكم الدولة المملوكية في مصر.

وقد جرى حكم المماليك على ما كان يجرى عليهم حكم الأيوبيين من نظام التوريث فكان كل حاكم يوصى لوريثه الشرعى بالحكم من بعده غير أن الانقلابات المستمرة لم تكن تهيئ للوريث الفرصة للحكم ، خاصة إذا كان غلاما حدثا.

وقد طالبت فترة حكم المماليك من عام ٥٤٨ هـ حتى عام ٩٢٢هـ وتقسّم عادة إلى مرحلتين:

- مرحلة حكم المماليك البحرية من عام ٦٤٨ - ٧٨٣هـ وحكم مصر خلالها خمسة وعشرون سلطاناً معظمهم من الأتراك.
 - مرحلة حكم المماليك البرجية (٧٨٤ - ٩٢٢هـ) حكم مصر خلالها أربعة وعشرون سلطاناً معظمهم من الشراكسة.
- وإذا كان ابن أبي أصيبعة قد عاش خلال المدة من ٥٩٥ هـ إلى ٦٦٨ هـ تقريباً فإنه يكون قد عاصر الدولتين : الأيوبية الذابلة ، والمملوكية الناشئة، وشهد أوائل حكم الظاهر بيبرس.

الأوضاع الثقافية والتعليمية: (*)

ورث الأيوبيون النهضة العلمية عن أسلافهم الفاطميين الذين بنوا الجامع الأزهر وبنوا بجواره مساكن للفقهاء لأسباب دينية تتعلق بالدعوة لمذهبهم الشيعي. ويرى سعيد إسماعيل أن انتشار المدارس في عهد الأيوبيين - بالرغم من اتهامهم بالتوسع فيها لنشر مذهبهم السني وتقويض المذهب الشيعي - كان ذا دلالة واضحة على مدى الازدهار الفكري والثقافي العام.

فقد اشتهر الحكام الأيوبيون بأنهم هم أنفسهم كانوا علماء وحريصين على أن يكون لكل منهم مجلس علم وأدب وكان منهم الشعراء والمتبحرون في الفقه والبلاغة والحديث.

وقد بدأت النهضة التعليمية على يد صلاح الدين الأيوبي الذي أنشأ مدرستين في عهد الخليفة العاض الفاطمي ، ولما استتب له الأمر أنشأ ثلاثاً آخر ، فصار عدد المدارس التي أنشأها صلاح الدين خمس مدارس.

وقد حاكى سلاطين الأيوبيين - ومن بعدهم سلاطين المماليك - صلاح الدين في بناء المدارس. ولا يخفى علينا أن المدارس كانت تدرس فيها العلوم الدينية لذلك

قصد السلاطين بتأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب. ومن أهم هذه المدارس المدرسة الكاملية التي أنشأها السلطان الكامل سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م)، والمدرسة الصالحية التي بناها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م). وكانت هذه المدرسة الأخيرة أول مدرسة تجمع بين مذاهب السنة الأربعة.

وكان يقوم بالتدريس في المدرسة مدرس أو أكثر يختار من مشايخ علماء عصره وأوسعهم علما، وأبعدهم صيتا لأنه على أساس مكانته وشهرته تتوقف سمعة المدرسة وأهميتها. ويساعد المدرس عادة معيد، وظيفته أن يعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس فهو أكبر منهم درجة، ويجلس معهم ليستمع إلى ما يعطيه المدرس، وبعد ذلك يرجع إلى الطلاب لشرح ما قد يكون قد صعب عليهم فهمه. ومنذ العهد الأيوبي أصبح منصب المعيد مرموقا، وقل أن خلت منه مدرسة من المدارس التي أنشئت في ذلك العصر، فقد عين صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية، كما عين الصالح نجم الدين معيدين اثنين لكل واحد من المدرسين الأربعة في مدرسته، واعتمد التدريس عادة في ذلك العصر على الإلقاء والتلقين والإملاء، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وطلابه.

والمعروف أن المدارس ومعاهد التعليم العالي لا بد لها من مكتبات ضخمة يرجع إليها المدرسون والطلاب، ويعتمدون عليها في التحصيل والاستزادة، لذلك عنى الأيوبيون عناية كبيرة بالمكتبات، فنسمع عن نور الدين محمود أنه خصص لمدرسته في دمشق كتبا كثيرة ليرجع إليها طلاب العلم.

وقد استمرت هذه النهضة في عصر المماليك على الرغم من أصولهم غير العربية، وخير ما يدل على ازدهار الحياة العلمية في عصر المماليك، هو عصر الثروة العلمية التي وصلتنا من ذلك العصر بالذات. وما زالت دور الكتب في جميع أنحاء العالم مشحونة بمئات المخطوطات التي ترجع إلى عصر سلاطين المماليك

بمصر، والتي تناولت معظم ألوان المعرفة : الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الدينية والطب والفلاحة والأدب والمعارف العامة.. وغيرها.

ففي الأدب عرف عن سلاطين المماليك تقريبهم الأدباء، وقد اشتهر من شعراء مصر في ذلك العصر البوصيرى المصرى صاحب البردة وتُعرف باسم «الكواكب الدرية» في مدح خير البرية، وهى في ٦٢ بيتاً، وقد توفى سنة ٦٩٥هـ. وتوفى في هذه السنة سراج الدين الوراق وكان شاعراً كثير النظم و صحيح المعانى ، عذب التورية ؛ وشهاب الدين العزازى المتوفى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠م)، وهناك ابن نباته المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧م) وقد نبغ في النظم والنثر، ومثله ابن أبى حجلة نزيل القاهرة الذى توفى سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٤م) ، ومن شعراء ذلك العصر من يرجع إلى أصل مماليكى مثل : على بن سودون البشغوى المتوفى سنة ٨٧٨هـ (١٤٧٣م). بل لقد كان السلطان قانصوه الغورى نفسه المتوفى سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م) شاعراً، وله ديوان غير منشور.

أما الأدباء الذين اشتغلوا بالنثر فهم عديدون، منهم القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) وله كتب عديدة أهمها موسوعة «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» وشمس الدين النواجى المتوفى سنة ٨٥٩هـ (١٤٥٥م)، وقد نسب إلى نواج إحدى قرى الغربية، وله كثير من الآثار الأدبية.

وفى ذلك العصر كثر الاشتغال باللغة وعلومها، وظهر من علماء اللغة كثيرون، على رأسهم ابن منظور المصرى المتوفى سنة ٧١١هـ / ١٣١١م) وله كثير من المؤلفات، على رأسها "لسان العرب"، المعجم الشهير، كذلك اشتهر من علماء اللغة ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٧٦١هـ (١٣٦٠م) ، والدماينى السكندرى المتوفى سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م).

على أن أبرز العلوم في عصر سلاطين المماليك كان بحق علم التاريخ، إذ ظهر فيه طائفة كبيرة من المؤرخين تركوا لنا تراثا ضخما، منهم من أصحاب السير ابن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣م)، وقد كتب كتابا في سيرة السلطان الظاهر بيبرس ، وآخر في سيرة الأشرف خليل بن قلاون. وهناك أيضا من كتاب السير ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ (١٢٣٤م) ، والقسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) وغيرهم كثيرون. ولم يقف الأمر عند حد النشاط في كتابة السير الفردية ، بل ظهر في عصر المماليك جماعة من المؤرخين وجهوا نشاطهم نحو تأليف كتب الطبقات مثل ابن خلكان صاحب " وفيات الأعيان"، وقد توفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢م)، والأدفي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧م) صاحب كتاب " الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد" ، وابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨م)، صاحب كتاب " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة " وشمس الدين السخاوي المتوفى سنة ٩٥٢ هـ (١٤٩٧م) صاحب كتاب " الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع " ، والسبكي صاحب كتاب طبقات الشافعية.

وهناك فريق من مؤرخي ذلك العصر اختاروا أن يؤلفوا كتباً عن بلد معين أو دولة بعينها مثل جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٩٢٨م) صاحب كتاب " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" ، وابن دقماق المصري المتوفى سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦م) صاحب كتاب " نزهة الأنام وكتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار " ، وتقى الدين المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١م) صاحب كتاب " المواعظ والاعتبار " ، وكتاب " السلوك " وأبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩م) وهو من أصل ممالكي ومن كتبه " النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة " ، و" المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي " ..

وغيرهم كثيرون. أما أصحاب التواريخ العامة فلا يقلون عدداً، منهم ببيرس المنصورى وهو أحد أمراء المماليك توفى سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) وله كتاب " زبدة الفكر " وبدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥هـ (١٤٥١م) وله كتاب " عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان " ، وغيرهما خارج مصر كثيرون.

أما فى علوم الجغرافيا والسياسة والإدارة فقد كتب شرف الدين بن الجيعان سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥م) كتاب " التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية " ، ويشتمل على إحصاءات إدارية وخراجية عن أرض مصر. وكذلك كتب نجم الدين أحمد بن الرمقة المصرى الشافعى - محتسب القاهرة المتوفى سنة ٧١٠هـ - كتاب «بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاية الأمور وسائر الرعية » ، وغيرهما كثيرون.

ومما سبق يمكن القول إن مرحلتى الأيوبيين والمماليك هما بحق مرحلتنا ازدهار ثقافى وفكرى فى تاريخ مصر الوسيط فى شتى المجالات. وحتى نتبين أهمية كتاب ابن أبى أصيبعة الذى نحن بصدد دراسته لابد من الإشارة بشكل أكثر تفصيلا إلى دراسة الطب فى هاتين الحقتين من التاريخ المصرى.

أوضاع تعليم الطب فى عصر ابن أبى أصيبعة إجمالا :

لم تكن المدارس وحدها هى مظهر رقى الحياة الثقافية والعلمية فى عصرى الأيوبيين والمماليك. بل كانت البيمارستانات - كما تسمى أحيانا - إحدى دلائل تلك النهضة وذلك الرقى.

وكانت البيمارستانات^(*) قد أنشئت لأول مرة فى عهد أحمد بن طولون فى مصر عام ٢٦١هـ. كما يذكر المقرئى فى خطه^(٨) ، وقد أنفق على إنشائه

٦٠,٠٠٠ (ستين ألف دينار) وكان به قسم للمجانين، وحمّامان : أحدهما للرجال والثاني للنساء. وكان ابن طولون يتفقدّه في كل يوم جمعه. وقرؤثر ابن أبي أصيبعة من أطباء هذه البيمارستان وأساتزته:

- إبراهيم بن عيسى.
- الحسن بن زيرك.
- سعيد بن توفيل.
- طبيب العيون: خلف الطولوني.

كما ذكر الأطباء الذين عملوا في هذا البيمارستان على عهد الإخشيديين الذين جاءوا بعد الطولونيين والذين أضافوا بدورهم بيمارستاناً جديداً.

وتموج القاهرة بالأطباء منذ عصر المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر، ومن أطبائه موسى بن العازار الجراح اليهودي، ومن أطبائه وأطباء ابنه العزيز أبو عبد الله التميمي المقدسي ، وأحمد بن محمد البلدي ، وأبو سهل كيسان بن عثمان ، وأعين بن أعين، ومنصور بن مقشر. ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء في عهده من مثل : إسحق بن إبراهيم بن نسطاس ، وماسوية وكان طبيباً وصيدلاناً ، وطبيب العيون أبي القاسم عمار بن علي وله " المنتخب في علاج أمراض العين " . ومن أهم الأطباء حينئذ ابن رضوان المتوفى سنة ٤٥٣هـ، وجعله الحاكم رئيساً على جميع الأطباء، وظل في هذه الوظيفة نحو خمسين عاماً، ودوت شهرته في العالم العربي مما جعل علماءه يكتابونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته في مسائل الطب، وممن رحل إليه من بغداد طبيبها ابن بطلان ، ويقول ابن أبي أصيبعة موازناً بينهما: «كان ابن بطلان أعذب لفظاً ، وأكثر ظرفاً ، وأميز في الأدب وما يتعلق به، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها» .

وقد ترجم شرحه لكتاب جالينوس في الطب إلى اللاتينية، ونشر مرارا شرحه للمقالات الأربع لبطليموس في علم الهيئة والفلك.

وتنشط صناعة الطب في مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه، وأيضاً بفضل دار العلم فقد كان الطب يدرس فيها، إذ يذكر المقرئ في حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها في سنة ٤٠٣ هـ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه. وقد يكون في ذلك مما يدل على أن المنطق كان يدرس بها وهو ما يتصل به في الفلسفة، ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان على بن سليمان، وكان في أيام العزيز والحاكم والظاهر، وكان متقناً للطب والفلسفة والعلوم الرياضية، وله في الفلسفة والطب كتب مختلفة. وممن خلفوا ابن رضوان تلميذه افرائيم بن الحسن اليهودي، وقد حصل من المستنصر وأبنائه على أموال كثيرة، وكان شغوفاً بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها، وكانت لديه منها خزانة كبيرة، واشتهر بأنه كان عنده دائماً نساخ يكتبون له ما يريد من الكتب، وهو يحملها إلى العراق، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالي في أيام وزارته، فبعث إليه بالمال الذي اتفق مع العراقي عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر. ويقولون أنه حولها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد. ومن تلاميذ افرائيم سلامة بن رحمون الطبيب ويقول ابن أبي أصيبعة أنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة.

ثم جاءت الدولة الأيوبية التي ولد ابن أبي أصيبعة في عهدها وعاش عمره يخدم ملوكها وأمراءها، وأرخ في كتابه لهم ولتعليم الطب في عهودهم المختلفة. وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين. وقد بدأ هذا الاهتمام باتخاذهم مارستاناً ضخماً في القاهرة، وفيه يقول ابن جبير: "مما شاهدناه

بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارستان ، وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً " ويذكر أنه عين له قيما وضع لديه خزائن العقاقير . ويقول أنه وضعت في مقاصر ذلك القصر أسيرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة . وبين يدي القيم خدمة يتكفون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشيا ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية . ويذكر أن بالمارستان قسما خاصا بالمرضى من النساء ومعهن من الخدم من يتكفل بحاجاتهم . وقسما خاصا بالمجانين على مقاصيره شبابيك الحديد . ويقول ابن جبير أن بالفسطاط مارستانا آخر على مثال ذلك الرسم بعينه . وطبيعي أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء . ولا بد أن نلاحظ أن المارستان في القاهرة في تلك الأيام كان دائما مدرسة للطب . كما كان مستشفى . في تلك الأيام ويكثر الأطباء في ذلك العصر . وأول من يلقانا منهم الشيخ السديد بن المنصور عبد الله الذي خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين ، وطالت حياته حتى سنة ٩٢٥ هـ ، وكان رئيساً على سائر المتطببين بمصر حتى وفاته ، وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل : ابن جميع ، وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب ، ومثل : الموفق ابن شوعه المتوفى سنة ٥٧٩ هـ ، وأبى البيان ابن المدور المتوفى سنة ٥٨٠ هـ ، وأبى الناقد الكحال طبيب العيون المتوفى سنة ٥٨٤ هـ ، وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ هـ وتكاثر الأطباء المصريون في عهد صلاح الدين وبعده مثل : أبى البركات بن القضاعي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ ، وجمال الدين ابن أبى الحوافر القيس ، وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رئاسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل في هذه الوظيفة حتى عهد الكامل . وكان ابنه فتح الدين أحمد ماهرا في الرمد وطب العيون . وولى أحيانا رئاسة الأطباء ، ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل : نفيس الدين بن الزبير المتوفى

سنة ٦٣٦ هـ ، ويقول ابن أبي أصيبعة أن أولاده مقيمون في القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل ، ومتميزون في علمها وعملها.

ويستمر ابن أبي أصيبعة في ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين. ويختتم تراجمهم بترجمة لابن البيطار المالقي الأندلسي المولد المتوفى سنة ٦٤٦ هـ وقد بارح موطنه في العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارسا لما فيها من نباتات. وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيسا على جميع العشابين، وهو بحق إمام النباتيين لزمه. وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارسا لأنواع النبات، وقرأ ما كتبه ديسقوريدوس وغيره من النباتيين. وهو بحق يعد أعظم الصيدلانيين قاطبه قبل العصر الحديث، وله كتابان: كتاب " الجامع في الأدوية المفردة " وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدلى قبله. وله في نفس الموضوع كتاب ثان هو " المغنى في الأدوية المفردة "، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب.

واستمرت النهضة في مجال الطب وتعليمه أيام المماليك الذين اشتهر من ملوكهم الأوائل الظاهر بيبرس الذى خدمه ابن أبي أصيبعة ودعا له فى كتابه بتخليد ملكه.

وما يلبث أن ولى السلطنة بعد بيبرس المنصور قلاون (٧٦٨ - ٦٨٩ هـ) فينشئ بیمارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « وهذا بیمارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا » وقد جعله أقساما كبيرة: قسما للمرضى بالحميات، وقسما للرمم ومرضاه، وقسما للجرحى، وقسما لمن به إسهال، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال ، وفراشات لخدمة النساء ، ونصب فيه الأسرة للمرضى وأمدّها بكل ما تحتاج إليه من فرش،

وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه، كي يلقي فيها دروسه على طلاب الطب، وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معاً، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاماً سنة ٧٢٧هـ للهجرة فقال : « أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الوصف عن محاسنه. وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر»، ويذكر أن مجباه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم".

وأنشئت في عهد قلاوون بجانب كلية الطب التي كانت ملحقة بمارستانه مدرسة للطب سميت المدرسة المهبذية نسبة إلى منشئها الطبيب مذهب الدين محمد بن أبي حليقة المار ذكره في عهد بيبرس. وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم في أيامه وسمى محمداً ويقول ابن أبي أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠هـ وأنه قرأ على أبيه الصناعة الطبية وصور أقسامها الكلية والجزئية، وحصل معانيها العلمية والعملية". وبلغ من ازدهار دراسة الطب حينئذ أنه كان يدرس في المساجد الجامعة، إذ اتخذ السلطان لاجين (٦٩٦هـ - ٦٩٧هـ) يعمر جامع ابن طولون. ويرتب فيه دروساً منظمة : للفقهاء على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوي، وبجانب ذلك يرتب فيها درسا للطب. وممن درسوا فيه بعد زمنه في القرن الثامن الطبيب شمس الدين محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن المصري المتوفى سنة ٧٧٦هـ.

ويكفي لبيان ازدهار دراسة الطب حينئذ أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمنه علاء الدين علي بن أبي الحزم المعروف باسم ابن النفيس العلامة في فنه الذي لم يكن في زمنه من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم، كما يقول ابن تغري بردي، ويكفيه فخراً ما ذكره الدوميلي وغيره من الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية، مسجلاً بذلك كشفاً طبياً خطيراً لم يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمنه اكتشافه، ومن كتبه «الشامل في الطب» ، و«المهذب في

الكحل» ، و" شرح القانون في الطب لابن سينا " . وقد توفي سنة ٦٨٧ هـ بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذي كان يعمل به رئيساً لأطبائه، وولى رئاسة الأطباء بعده مهذب الدين بن أبي حليقة، ويسرد السيوطي في " حسن المحاضرة " أسماء طائفة من الأطباء في القرن الثامن الهجري. ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد بن الأکفاني المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان في طب العيون، ومن مصنفاته في الرمد «كشف الغين في أحوال العين» وله كتاب في الطب المنزلي سماه «غيبة اللبيب» وكتاب في القصد سماه «نهاية القصد» وكتاب في الأحجار النفسية سماه «نخب الذخائر» ومن كتبه: «أرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد» (***) . وهو مختصر جامع لفنون شتى تبلغ ستين فناً.

وظهر بعده صدقة بن إبراهيم الشاذلي. ويغلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء النصف الثاني من القرن الثامن الهجري المقابل للقرن الرابع عشر الميلادي. ومما يدل على شهرة مصر أيام المماليك في الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس في كتابه "بدائع الزهور" من أن السلطان بايزيد العثماني أرسل في سنة ٧٩٥ هـ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يبعث إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل ، فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاجها، وبظل هذا النشاط الطبى في مصر حتى نهاية زمن المماليك.

وكانت أهم وظيفة في البيمارستان وظيفة «الناظر» أو «رئيس الأطباء» الذي

كان يصدر بتعيينه مرسوم سلطاني يحدد له فيه مهامه الوظيفة وأهمها :

- تفقد أحوال المرضى والتأكد من تمتع الفقراء بالعلاج المجانى.
- مراقبة الأطباء أثناء عملهم وتفقد انضباطهم.

- مجازاة المخطئ من الأطباء والحفاظ على أخلاقيات المهنة.
- الإشراف على الفنيين والإداريين العاملين بالمستشفى.
- مراقبة نظم التغذية والدواء.

وفيما يلي نثبت صورة أو نموذجاً لهذه المراسيم سجله لنا القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» وهو مرسوم بتعيين ناظر للبيمارستان النورى، الذى أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى (ت ٥٦٩هـ) (٩)، يقول :

"الوظيفة الثامنة- النظر .

وهذه نسخة توقيع بنظر البيمارستان النورى، كتب بها لمن لقبه " شهاب الدين" وهى: رسم ٠٠٠- لا زال يطلع فى سماء المناصب السنية من ذوى الأصالة والكفاية شهابا ويوزع المستحقين بجهات البر شكره إذ اختار لهم من أهل النهضة من ارتدى العفاف جلبابا، ويودع صحائف الأيام ذكره الجميل حين أحيا قربات الملوك السالفين بانتخاب من يجدد لهم بحسن المباشرة ثوبا- أن يحمل «مجلس الأمير» فلان : أعزه الله تعالى فيما هو بيده فى نظر البيمارستان النورى بدمشق المحروسة، على حكم التوقيع الكريم والولاية الشرعية للذين بيده واستقراره فى ذلك بمقتضاهما استقرارا يبسط فى هذا المنصب يده ولسانه، ويظهر شهاب عد له الذى يحرق الجور شيطانه ويبرز من مباشرته ما عرف جوهره بحسن الانتقاء وابريزه بحسن الانتقاد، ومن تأثيره ما تبلغ بن الانفس المراد بأوسع مراد ويبدى من تدبيره، ما ينتج تمييز الوقف وتثميده.

فليباشر ذلك على عادة مباشرته الحسنة، وليسلك فيها ما عهد من طريقته المستحسنة، محصلا من المفردات ما يصرفها لمستحقها وقت الحاجة إليها، مثابرا على حسن معالجة المضرور الذى لا تقدر يده من العجز عليها، مواصلا فعل

الخير باستمرار صدقات الواقع ليشاركه في الأجر والثواب، مستجلبا له من الدعاء ولنا بمشاركته في الأمر بالعمل بسنته إلى يوم المآب، ضابطا أموال هذه الجهة بتحرير الأصول والمطلق والحساب متقدما إلى الخدام والقومة بحسن الخدمة للعاجز والضعيف، مؤكدا عليهم في أخذهم بالقول اللين دون الكلام العنيف، ملزما لهم بجودة الخدمة ليلا ونهاراً، مؤاخذا لهم بما يخلون به من ذلك إهمالا وإقصاراً متقدماً إلى أرباب وظائف المعالجة ببذل النصيحة واستدراك الأدواء المقسمة بإتقان الأدوية الصحيحة، وليتفقد الأحوال بنفسه: ليعلم أهل المكان أن وراءهم ما يقابلهم على التقصير، وليبذل في ذلك جهده فإن الاجتهاد القليل يؤثر الخير الكثير. والوصايا كثيرة وعنده من التآدب بالعلم وحسن المباشرة ما فيه كفايه وفي أخلاقه من جميل المآثر وما حازه في البداية ما ينفعه في النهاية، ولكن تقوى الله عز وجل هي السبب الأقوى، والمنهل الذي من ورده يروى، فليجعلها له ذخيره ليوم الميعاد ومعقلا عند الخطوب الشداد، والله تعالى يبلغه من التوفيق الأمل والمراد، بمنه وكرمه والاعتماد... إن شاء الله تعالى".

من هو ابن أبي أصيبعة؟

اسمه: أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي.

كنيته: أبو العباس .

لقبه: موفق الدين.

شهرته: ابن أبي أصيبعة. وهي نفسها لقب جده.

وجده هو "خليفة بن يونس الخزرجي". وقد غلب لقب ابن أبي أصيبعة" على موفق الدين وصار علما عليه في حياته على ما يبدو ، وبعد وفاته في ثانيا كتابات

المؤرخين له أو للتأليف الطبي، أو لكتب الطبقات والتراجم. ويبدو أن التلقيب باسم العائلة كان شائعاً في عصره فقد قال في ترجمة رشيد الدين أبي حليقة (ص ٥٩٦):
«وجماعة أهل الحكيم رشيد الدين أبي حليقة أكثر شهرتهم في الديار المصرية والشام ببني شاكراً، لشهرة الحكيم أبي شاكراً وسمعته الذائعة، فصار كل من له نسب إليه يعرفون ببني شاكراً وإن لم يكونوا من أولاده».

والواقع أن المعلومات المتاحة عن حياة ابن أبي أصيبعة يكتنفها غير قليل من الغموض والاضطراب. وليته سار على نهج كثير ممن سبقوه من المؤرخين الذين لم ينسوا التأريخ لأنفسهم، فساعد ذلك من جاءوا بعدهم حين كتبوا عنهم.
وعلى أية حال، فإن ترجمته لحياة عمه الطبيب رشيد الدين على بن خليفة (ت ٦١٦هـ) تضمنت معلومات مفيدة عن جده خليفة (ابن أبي أصيبعة الأول) ووالده الطبيب القاسم بن خليفة (ت ٦٤٩هـ) مما سوف نعطيه أولوية في الاعتماد عليه أكثر مما رواه عنه الآخرون.

فمن هذه الترجمة (****) نستنتج أن جده خليفة كانت له همه في طب العلوم وكان قد توجه إلى الديار المصرية عندما فتحها «صلاح الدين الأيوبي» وكان جده في خدمته وخدمة أولاده، ولما رزق الله تعالى خليفة هذا بابنيه : القاسم (والد موفق الدين) الذي ولد سنة ٥٧٥هـ وعلى الذي ولد سنة ٥٧٩هـ اهتم بتعليمهما الطب حتى اشتهرا ومارسا المهنة وبرعا فيها وتوليا تدريس الطب لغيرهما.

ولكن ابن أبي أصيبعة لم يحدد لنا تاريخ مولده مما جعل الاضطراب يسود الروايات المختلفة التي تعرضت لهذا التاريخ على النحو الآتي :

١- ذكرت دائرة المعارف الإسلامية «مادة» ابن أبي أصيبعة أنه ولد سنة ٦٠٠ هـ بدمشق (١٠).

٢- ذكرت في التعليق على هذه المادة أنه ولد في حدود سنة ٥٩٥ هـ في القاهرة (١١).

٣- ونقل عبد الصبور شاهين التاريخين وحاول- بشكل مضطرب- التوفيق بينهما (١٢).

٤- وذكر جورجى زيدان أنه ولد سنة ٦٠٠ هـ (١٣) بدمشق.

٥- وذكر الزركلى أنه ولد سنة ٥٩٦ هـ (١٤).

٦- وذكر بوركلمان أنه ولد بعد سنة ٥٩٠ هـ بدمشق (١٥).

٧- وذكر كحالة أنه ولد بدمشق سنة ٥٩٦ هـ (١٦).

والذى يطمئن إليه الباحث إزاء هذا الاضطراب هو ما ذهب إليه كارل بروكلمان من أنه ولد بعد عام ٥٩٠ هـ ويكون عمر أبيه آنذاك فوق خمس عشرة سنة. وربما كان التاريخ الذى اتفق عليه كل من الزركلى وكحالة (١٧). وهو ٥٩٦ هـ هو الصواب. وذلك لأن ابن تغزى بردى حين ترجم له فى النجوم الزاهرة (١٨). قال : «مات بصرخة فى جمادى الأولى- سنة ٦٦٨- وقد نيف على سبعين سنة» وابن تغزى بردى (ت ٨٧٤ هـ) مؤرخ بارزوليس من السهل أن يقع فى خطأ التعبير بـ «نيف على» وهو يعلم أنه ولد سنة ٦٠٠ هـ وبخاصة أنه أشار إليه فى موضع آخر فى كتابه المنهل الصافى (١٩). حين ذكر أن ابن أبى أصيبعة أرخ للطبيب عز الدين السويدى المولود سنة ٦٠٠ هـ وقال عنه «وكننت أنا وهو فى المكتب».

مأخذ على دائرة المعارف الإسلامية :

أولاً: التعصب الدينى:

يظهر التعصب من تركيز المؤلفين على دور النصارى واليهود فى تعليم الطب لأسرة ابن أبى أصيبعة خلافا للحقيقة، وذلك كما فى الأمثلة التالية :

١/أ : القول بأن الوزير الذى كتب ابن أبى أصيبعة كتابه ليهديه إليه هو أبو الحسن بن غزال السامرى إشارة إلى ديانته اليهودية على مذهب السامرى مخالف للحقيقة إذ قال عنه ابن أبى أصيبعة فى كتابه (ص ٧٢٣) أنه كان سامريا وأسلم.

١/ب: القول بأن والده وعمه كانا «يطلبان العلم على الفيلسوف اليهودى الطبيب موسى بن ميمون " فيه مخالفة للحقيقة إذ روى ابن أبى أصيبعة فى ترجمته لعمه رشيد الدين أن عمه وأباه تعلموا على يدى جمال الدين أبى الحوافر وأبى الحجاج يوسف الكحال (أشارت إليه الدائرة) اللذين كانا صديقين لجده خليفة.

١/ج: القول بأنه استفاد من دروس السديد بن أبى البيان الإسرائيلى فى البيمارستان الناصرى بالقاهرة فيه مبالغة وتعصب. إذ كان ابن أبى أصيبعة فى ذلك الوقت طبيباً كبيراً له مرتبة شأنه شأن الإسرائيلى. وجعله تلميذاً له يوحى بأنه كان ما زال فى دور الطلب بدليل قولهم حرفياً (٠٠٠) وعلى هذا النحو استطاع ابن أبى أصيبعة أن يحذق الطب من الناحية العملية).

١/د : وينطبق هذا التعصب أيضاً على قولهم أن ابن أبى أصيبعة كان شغوفا بدروس الطبيب اليهودى عمران بن صدقة. مع أن مقابلته له كانت عارضة ولم تكن تلمذة بالمعنى الذى أرادت الدائرة إبرازه.

ثانياً: عدم الدقة التاريخية:

وتظهر من الأمثلة التالية:

أ/٢ : القول بأن موسى بن ميمون اليهودى كان أستاذا لوالد ابن أبى أصيبعة وعمه، مع أن ابن أبى أصيبعة يذكر أنه كان زميلا له فى المعالجة فى البيمارستان الناصرى بالقاهرة عام ٦٣١ هـ أو ٦٣٢ هـ (ص ٥٨٣). وعمه توفى ٦١٦ هـ.

ب/٢ : القول بأن أباه "أبرأ الملك العادل عام ٦٠٦ هـ من رمد شديد فقرَّ به إليه وأصبح كحالا شهيراً ، ففى هذه العبارة أكثر من خطأ :
* فالصحيح أنه أبرأ أحد خدم الملك العادل وليس الملك نفسه ، وهذا الخادم اسمه سليطة (ص ٧٣٨).

* وكان ذلك عام ٦٠٩ هـ وليس ٦٠٦ هـ (ص ٧٣٨).
* وكان أبوه مشهورا قبل هذه الحادثة بدليل السماح له بمعالجته بعد إخفاق كل أطباء العيون المرافقين للملك (ص ٧٣٨).

ج/٣ : القول بأن ابن أبى أصيبعة شغل منصبا فى بيمارستان بالقاهرة عام ٦٣٤ هـ خطأ لأنه فى تلك السنة سافر إلى (صرخد) بناء على طلب أميرها عز الدين أيدمر. (٢٦٧٩) ، والصواب أنه كان بالقاهرة - كما قال - سنة ٦٣١ أو ٦٣٢ هـ، و ٦٣٣ هـ وكانت له «جامكية وجراية» أى راتب وحوافز بلغة ذلك العصر.

د/٢ : القول بأنه أنقن الدراسة العملية للطب على يدى السديد بن أبى البيان الإسرائيلى. والصواب : أنه تعلم الدراسة العملية للطب على يدى أستاذه الذى يعتز به كثيرا مهذب الدين عبد الرحيم بن على، وأستاذه الآخر رضى الدين الرحبى وهو نفسه أستاذ عمران اليهودى الذى جعلته الدائرة أستاذا لابن أبى أصيبعة لمجرد أنه ذكر أنه حضر معه دروسا عملية - أى بصفته

زميلا- على يدى شيخهما رضى الدين الرحبى (ص٦٧٣) الذى لم يكن يرغب فى تعليم الطب لأهل الذمة.

مأخذ على مقالة عبد الصبور شاهين :

وللباحث على مقالة أستاذه و. عبر (الصبور شاهين) مأخذ عريضة :

الأول : أنه نقل عن دائرة المعارف نقلا مباشرا مع تغيير طفيف جدا (أحيانا) فى بعض الكلمات ليوحى بأنه يكتب من تلقاء نفسه.

الثانى : متابعته للدائرة فى أخطائها وتعصبها ، فقد ذكر واقعة علاج والده للملك العادل وقد بينا أن هذا مخالف للحقيقة وأنه عالج أحد خدم الملك. وكما أورد ذات التاريخ وهو ٦٠٦ هـ والصواب كما أوضحنا هو ٦٠٩ هـ.

الثالث : التحريف فى النقل ، فالدائرة تقول : " وعلى هذا النحو استطاع أن يحذق الطب من ناحيته العملية " ، وشاهين يقول " .. استطاع أن يخدم الطب من الناحية العملية " . والفارق واسع بين يحذق ويخدم.

الرابع : ادعاء ما ليس صحيحا كالقول بأن كتاب ابن أبى أصيبعة منشور فى طبعة فخمة بعناية الدكتور نزار رضا عن دار مكتبة الحياة ببירות سنة ١٩٦٥م. والصواب أن هذه الطبعة الفخمة المتداولة ليس بها أية إشارة إلى سنة النشر.

الخامس : المجازفة العلمية كقول شاهين : «إن المؤلف صنع كتابه ليخدم به خزانة الوزير (أبى الحسن بن غزال) المولى الصاحب.. الخ» ، ثم إضافته من عنده : " وكان هذا الوزير عالماً عادلاً حكيماً يعطى القدوة من نفسه ويقوم العدل فى رعيته، هذا كلام شاهين، وأما ابن العماد صاحب "شذرات الذهب" فيقول^(٢٠): وكان (يقصد هذا الوزير) ظالما نحسا ماكرا داهية " .

السادس : النقل غير المثبت ليس فقط عن الدائرة كما رأينا فيما سبق، ولكن أيضا عن على مبارك حيث نقل شاهين عن الخطط التوفيقية أن عدد التراجم فى الكتاب هو ٣٦٨ ترجمة ، وقالت الدائرة أن التراجم ٤٠٠ ترجمة ، وقد قام الباحث بإحصاء التراجم فوجدها ٣٩٢ ترجمة .

وعلى أية حال فإن ابن أبى أصيبعة قضى معظم حياته متنقلا بين القاهرة ودمشق ثم عمل فى صرخد^(٢١). مع أميرها عز الدين أيدمر حتى مات بها سنة ٦٦٨هـ حسب إجماع الروايات التى أرخت لوفاته.

دوافع ابن أبى أصيبعة لتأليف كتابه :

كان تأليف الكتب وإهداؤها إلى الوزراء أو الخلفاء والأمراء قديما عادة معروفة ووسيلة من وسائل الكسب المادى بالحصول على المكافآت والكسب الاجتماعى بتولى الوظائف المرموقة كخدمة السلاطين والوزراء ، وما يحققه القرب منهم من وجاهة اجتماعية . كما كان بعض الحكام يشجع العلماء على تأليف الكتب فى مجالات معينة حبا للعلم ورغبة فى نشره. وقد أوضح ابن أبى أصيبعة فى مقدمة كتابه أنه كتبه خصيصا لخزانة الوزير أبى الحسن بن غزال ، ولم يحدد لنا أسباب كتابته إياه ، وإن كانت لن تخرج عن التحليل السابق. وقد سبقه فى هذا المضمار كثير من المؤلفين القدامى كأبى حيان التوحيدى وغيره.

الأهمية التربوية لهذا الكتاب :

إن الأهمية التربوية لهذا الكتاب تنطلق من (الاعتبارات) التالية :

أولها : أن ابن أبى أصيبعة نفسه كان طبيبا وعلى صلات واسعة بأطباء عصره فتأريخه لهم يكتسب مصداقية تفوق مُعاصِرِه القفطى الذى كان شاعرا ووزيرا وقاضيا ، وأرخ للأطباء ، فجاء كتابه مجموعة من الحكايات الأقل مصداقية.

ثانيها : أنه عاش متنقلاً بين مصر والشام في العصر الأيوبي ، وشهد بداية العصر المملوكي حيث كانت القاهرة ودمشق في ذلك في الوقت أكبر حاضرتين إسلاميتين في العالم الإسلامي. وكانتا مهبط العلماء ومحط رجال نابغين في شتى التخصصات.

ثالثهما : أن ابن أبي أصيبعة ترجم لعدد وافر من الأطباء من الفرس والروم والعرب والمغاربة يقارب الأربعمئة.

رابعهما : أنه يذكر بعد كل ترجمة أسماء الكتب التي ألفها صاحب الترجمة في الطب وغيره من المعلوم ، وأن ما أثبتته من الكتب بلغ من الثقة حدًا كبيرًا. فهذه الكتب تعطينا فكرة واضحة- كما نقول دائرة المعارف الإسلامية عن هذا الانتاج العلمي العظيم لكثير من هؤلاء العلماء ، وما وصلوا إليه في بعض الأحيان من المعرفة الشاملة العجيبة. وقد اعتمد الكتابان الموثوق بهما اللذان كتبا عن الطب الإسلامي باللغات الأوربية (وهما كتاب فستفلد بالألمانية وكتاب لكرك بالفرنسية) كل الاعتماد على مصنف ابن أبي أصيبعة "عيون الأنباء".

تاريخ تعليم الطب من خلال كتاب ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)

أرخ ابن أبي أصيبعة لتعليم الطب في بلاد مختلفة ، وكان منهجه في التأريخ يقوم على أساس التراجم المفصلة لأطباء كل بلد مرتبين في صورة طبقات من الأقدم إلى الأحدث، وتشمل ترجمة كل طبيب نبذه عن حياته وأساتذته وتلاميذه ونواذره ، ويختتمها بمؤلفاته الطبية –وغير الطبية أحياناً- .
وقر شملت تراجمه (البلاو الآتية :

- ١- بلاد اليونان.
- ٢- الأسكندرية.
- ٣- الجزيرة العربية.
- ٤- العراق.
- ٥- فارس .
- ٦- الهند.
- ٧- المغرب (بلاد المغرب وتضم الأندلس وشمالى أفريقيا).
- ٨- الشام.

وفد خصص ابن أبي أصيبعة الباب الأول من كتابه لدراسة نشأة علم الطب أو العلوم الطبية إذا أخذنا في الاعتبار تعريجه على تطور صناعة الدواء ، وما يتصل به من علوم النبات، والبيطرة بعلومها المختلفة.

وقد أشار في مقدمة حديثه إلى الصعوبات التي تواجه دارس تاريخ تعليم الطب وأجزها في ثلاث نقاط هي :

- ١- قدم العهد بنشأة الطب والعلاج.
- ٢- عدم وجود المراجع العلمية الموثوق بها.
- ٣- اختلاف مشارب المؤرخين وتباين معتقداتهم وأطرهم المعرفية والاجتماعية.

وبعد أن يذكر هذه الصعوبات يدخل في مناقشة فلسفية حول قدم أو حدوث صناعة الطب. ومسألة القدم والحدوث من المسائل الشائكة في الفكر الفلسفي الإسلامي لارتباطها على نحو ما بالعقيدة الإسلامية وما يتصل بالتوحيد وقدم الخالق. وما فتنة خلق القرآن التي ثارت في عصر المأمون إلا صورة واضحة للمدى الذي وصل إليه الجدل حول هذه المسألة حين كانت الرقاب تطير لمجرد المخالفة في الرأي.

وقد أورد ابن أبي أصيبعة آراء الفريقين المتعارضين : القائلين بالقدم - بمعنى أن هذه الصناعة موجودة مع الإنسان إلهاماً منذ وجوده على الأرض - والقائلين بالحدوث - بمعنى أن الناس اكتسبوها بالتجربة والملاحظة - ، وأورد ذلك بصورة إجمالية ثم فصله على خمسة أقسام كما أسماها ، وهي :

الأول : أن يكون مصدر المعرفة الطبية الأنبياء والأصفياء ، ويروى عن القائلين بهذا الرأي آثارا من الثقافة الإسلامية واليهودية والصابئة والمجوسية وغيرها.

الثانى : أن يكون مصدر المعرفة الطبية هو الرؤيا الصادقة ، ويروى عن القائلين بهذا رأى روايات عن جالينوس وأبقراط تؤيد أنهما إلهاما من خلال الرؤى المنامة ببعض أنواع العلاج والدواء.

الثالث : أن يكون مصدر المعرفة الطبية الاتفاق والمصادقة، كما يروى عن أندرو ماخس وأبو لونيوس وغيرهما.

الرابع : أن يكون مصدر المعرفة الطبية ملاحظة سلوك الحيوانات وتقليده.

الخامس : أن يكون مصدر المعرفة الطبية الإلهام عن طريق الفطرة كما هو الحال عند بعض الحيوانات والطيور التى تتصرف بوحى من فطرتها.

ثم يعلق على هذا التقسيم برون أن يحرو لنفسه موقفا واضحا ، فيقول :

وبالجملة فإنه قد يكون من هذا ومما وقع بالتجربة والاتفاق والمصادقة أكثر ما حصلوا من هذه الصناعة. ثم تكاثر ذلك بينهم وعضده القياس بحسب ما شاهدوه وأدتهم إليه فطرتهم، فاجتمع لهم من جميع تلك الأجزاء التى حصلت لهم بهذه الطرق المتقننة المختلفة أشياء كثيرة. ثم أنهم تأملوا تلك الأشياء واستخرجوا عالمها والمناسبات التى بينها، فتحصل لهم من ذلك قوانين كلية ومبادئ منها يبتدأ بالتعلم والتعليم، وإلى ما أدركوه منها أولا ، فعند الكمال يتدرج فى التعليم من الكليات إلى الجزئيات، وعند استنباطها يتدرج من الجزئيات إلى الكليات، وأقول أيضا : وقد أشرنا إلى ذلك من قبل أنه ليس يلزم أن يكون أول هذا مختصا بموضع دون موضع، ولا يفرد به قوم آخرين إلا بحسب الأكثر والأقل، وبحسب تنوع المداواة. ولهذا فإن كل قوم هم مصطلحون على أدوية يألّفونها ويتداوون بها، وأرى أنهم إنما اختلفوا فى نسبة صناعة الطب إلى قوم بحسب ما قد كان يتجدد عند قوم فينسب إليهم، فإنه قد يمكن أن تكون صناعة الطب فى أمة، أو فى بقعة من الأرض

فتندثر وتبيد بأسباب سماوية أو أرضية، كالطواعين المفننة والقحوط المجلية والحروب المبيدة، والملوك المتغلبة، والسير المخالفة. فإذا انقرضت في أمة ونشأت في أمة أخرى، وتطول الزمان عليها نسي ما تقدم، وصارت الصناعة تنسب إلى الأمة الثانية دون الأولى، ويعتبر أولها بالقياس إليهم فقط، فيقال لها مذ ظهرت كذا وكذا وإنما يعنى في الحقيقة مذ ظهرت في هذه الأمة خاصة، وهذا مما لا يبعد. فإنه على ما تواترت به الآثار، وخصوصا ما حكاه جالينوس وغيره، أن أبقرات لما رأى صناعة الطب قد كادت أن تبيد، وأنه قد درست معالمها عن آل اسقليبيوس، الذين أبقرات منهم، تداركها بأن أظهرها وبثها في الغرباء، وقواها ونشرها وشهرها بأن أثبتها بالكتب، فهذا يقال أيضاً على ما ذهب إليه كثير من الناس : أن أبقرات أول من وضع صناعة الطب ، وأول من دونها وليس الحق على ما تواترت به الآثار، إلا أنه أول من دونها من آل اسقليبيوس لتعليم كل ما يصلح لتعلمها من الناس كافة، ومثله سلك الأطباء من بعده واستمر إلى الآن. واسقليبيوس الأول هو أول من تكلم في شيء من الطب على ما سيأتى ذكره.

تعليم الطب في بلاد اليونان :

نقل ابن أبى أصيبعة عن سبقوه أن اسقليبيوس^(٢٢) هو أول من ذكر من الأطباء في العالم، وأول من تكلم في الطب التجريبي بوصفه علما ينتقل عن طريق التعليم.

ويذكر ابن أبى أصيبعة- نقلا عن سابقيه- أن هذا الرجل كان معظماً عند اليونانيين حتى بعد موته، وأنه إمام الطب عندهم وأبو أكثر الفلاسفة القدامى مثل : إقليدس وأفلاطون وأبقرات وأرسطوطاليس، وأن سولون- المشرع اليوناني الشهير- أخوه. كما يذكر أن اسقليبيوس هذا قد تلقى علم الطب على يدى طبيب

مصرى هو أغاطوديمون، وفي رواية أخرى أنه تلقاه على يدى طبيب مصرى يسمى هرمس.

ونقل ابن أبى أصيبعة عن طبيب مؤرخ سابق عليه هو ثابت بن قره الحرانى أن اسقليبيوس كان له اثنا عشر ألف تلميذ ، وأنه كان يقوم بتعليمهم الطب مشافهة وكان أهله يتوارثون صناعة الطب ، ومع ذلك فإنه ينقل رواية أخرى عن يحيى النحوى أن اسقليبيوس هذا كان له ابنان ماهران فى هذه الصناعة ، وعهد إليهما ألا يعلما الطب إلا لأولادهما وأهل بيته ، وألا تخرج صناعة الطب إلى الغرباء ، بل يعلمها الأباء الأبناء ، ثم أفاض فى ذكر أحوال هذا الطبيب وصفة تمثاله وملابسه وعاداته ، وفسر الرموز التى توجد حول صورة التى كانت مجسمة ومعبرة عن اعتقاداته واعتقادات من اهتموا بالتأريخ له وختم ترجمته له بذكر بعض أقواله.

بعد ذلك عرض ابن أبى أصيبعة للأطباء اليونانيين من نسل هذا الطبيب وهم: غورس، مينس، برمانيدس، أفلاطون الطبيب، وأخيرا اسقليبيوس الثانى الذى انتقلت بعده هذه الصناعة إلى أبقرات الذى يعد أبا الطب فى العالم القديم.

وقد عاش أبقرات خمسا وتسعين سنة^(٢٣). ولما رأى أن ورثة جده السابع اسقليبيوس الأول يقلون، رأى أن ينشر تعليم الطب ويتيح لساير الناس مخالفا بذلك وصية جده. وقد نقل أبقرات تعليم الطب نقله كبيرة بخطوات ثلاث هى :

١- السماح بكتابة ما يسمعه المتعلم من أستاذه ، ولم يكن ذلك مسموحاً به من قبل ، فكان التعليم مشافهة فقط .

٢- تأليفه هو نفسه للكتب خوفا على هذا العلم من الانقراض .

٣- وصفه ما يسمى بـ (عهد أبقرات) أو ما يمكن تسميته بـ (ميثاق شرف المهنة)، وفيما يلى نصه كما أورده ابن أبى أصيبعة :

قَسَمُ أَبْقَرَاط :

قال أبقراط : " إني أقسم بالله رب الحياة والموت، وواهب الصحة، وخالق الشفاء وكل علاج. وأقسم باسقليبيوس. وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعا وأشهدهم جميعا على أنى أفى بهذه اليمين وهذا الشرط. وأرى أن المعلم لى هذه الصناعة بمنزلة آبائى، وأواسيه فى معاشى، وإذا احتاج إلى مال واسته وواصلته من مالى.

«وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساو لأختى، وأعلمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلمها بغير أجره ولا شرط. وأشرك أولادى وأولاد المعلم لى والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط أو حلفوا بالناموس الطبى فى الوصايا والعلوم وسائر ما فى الصناعة. وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك، وأقصد فى جميع التدابير، بقدر طاقتى، منفعة المرضى».

«وأما الأشياء التى تضر بهم وتدنى منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأى ولا أعطى إذا طلب منى دواء قتالا، ولا أشير أيضا بمثل هذه المشورة وكذلك أيضا لا أرى أن أدنى من النسوة فزوجة تسقط الجنين. وأحفظ نفسى فى تدبيرى وصناعتى على الزكاة والطهارة، ولا أشق أيضا عمن فى مئنته حجارة، ولكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل. وكل المنازل التى أدخلها إنما أدخل إليها لمنفعة المرضى، وأنا بحال خارجه عن كل جور وظلم وفساد إرادى مقصود إليه فى سائر الأشياء، وفى الجماع للنساء والرجال، الأحرار منهم والعبيد. وأما الأشياء التى أعاينها فى أوقات علاج المرضى أو أسمعها، فى غير أوقات علاجهم فى تصرف الناس من الأشياء التى لا ينطبق بها خارج فأمسك عنها، وأرى أن أمثالها لا ينطبق به.

فمن أكمل هذه اليمين ، ولم يفسد شيئا كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها، وأن يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائما، ومن تجاوز ذلك كان بضده".

وقد حدد أبقراط مواصفات طالب الطب على النحو التالي الذى أورده ابن أبى أصيبعة :

«وينبغى لمن أراد تعلم صناعة الطب أن يكون ذا طبيعة جيدة مؤاتية وحرص شديد ورغبة تامة، وأفضل ذلك كله الطبيعة لأنها إذا كانت مؤاتية فينبغى أن يقبل على التعليم ولا يضجر لينطبع في فكره ويثمره ثمارا حسنة، مثل ما يرى في نبات الأرض، أما الطبيعة فمثل التربية، وأما منفعة التعليم فمثل الزرع، وأما تربية التعليم فمثل وقوع البذر في الأرض الجيدة . فمتى قدمت العناية في صناعة الطب بما ذكرنا، ثم صاروا إلى المدن لم يكونوا أطباء بالاسم بل بالفعل . والعلم بالطب كنز جيد وذخيرة فاخرة لمن علمه، مملوء سرورا، سرا وجهرا، والجهل به لمن انتحله صناعة سوء، وذخيرة رديه، عديم السرور، دائم الجزع والتهور. والجزع دليل على الضعف، والتهور دليل على قلة الخبرة بالصناعة. وينبغى أن يكون المتعلم للطب في جنسه حرا، وفي طبعه جيدا، حديث السن، معتدل القامة متناسب الأعضاء، جيد الفهم، حسن الحديث، صحيح الرأى عند المشورة، عفيفا شجاعا غير محب للفضة، مالكا لنفسه عند الغضب ولا يكون تاركا له في الغاية، ولا يكون بليدا. وينبغى أن يكون مشاركا للعليل مشفقا عليه، حافظا للأسرار، لأن كثيرا من المرضى يوقفونا على أمراض بهم لا يحبون أن يقف عليها غيرهم.

وينبغي أن يكون محتملا للشثيمة، لأن قوما من المبرسمين (المصابون بالبرسام وهو الهذيانى) وأصحاب الوسواس السوداوى يقابلونا بذلك، وينبغى لنا أن نحتملهم عليه ونعلم أنه ليس منهم، وأن السبب فيه المرض الخارج عن الطبيعة. وينبغى أن يكون حلق رأسه معتدلا مستويا، لا يحلقه ولا يدعه كالجمه ولا يستقصى قص أظافير يديه، ولا يتركها تعلو على أطراف أصابعه. وينبغى أن تكون ثيابه بيضاء نقية لينة، ولا يكون فى مشيه مستعجلا لأن ذلك دليل على الطيش، ولا متباطئا لأنه يدل على فتور النفس. وإذا دعى إلى المريض فليعقد متربعا ويختبر منه حاله بسكون وتأن، لا بقلق واضطراب فإن هذه الشكل والزى والترتيب عندى أفضل من غيره " .

تعليم الطب فى مصر (الأسكندرية) :

بدأ تعليم الطب فى الأسكندرية على أيدى سبعة من الأطباء النصارى وهم اصطفن جاسيوس، ثاودوسيوس، اكيلاوس، انقيلاوس، فلاذنيوس، يحيى النحوى. حيث كانوا يقرأون من كتب جالينوس ستة عشر كتابا على ترتيب سذكروه عند الحديث عن مراحل تعليم الطب فى المبحث القادم.

وقد عمر من هؤلاء السبعة يحيى النحوى الذى أدرك أوائل الإسلام وقيل إنه دخل على عمرو بن العاص فأكرمه واحترم مكانته العلمية. ول يحيى هذا لقب آخر هو فيلوبينوس ومعناه بالرومية المجتهد. ولا يقدم لنا ابن أبى أصيبعة معلومات كثيرة عن يحيى هذا سوى أنه كان قويا فى علم النحو فلقب بالنحوى، وأنه كان متمكنا فى المنطق والفلسفة، وكان محبا للعلم حريصا على طلبه وإذاعته بين الناس.

ول يحيى النحوى كتب كثيرة معظمها شروح وتفسير لمؤلفات يونانية عريقة فى الطب. فمثلا من مؤلفاته:

١- تفسير كتاب «النبض الصغير» لجالينوس.

- ٢- تفسير كتاب «الصناعة الصغير».
- ٣- تفسير كتاب «المزاج» لجالينوس.
- ٤- تفسير كتاب «السماع الطبيعي» لأرسطو طاليس.
- ٥- تفسير كتاب «القوى الطبيعية» لجالينوس.
- ٦- تفسير كتاب «التشريع الصغير» لجالينوس.
- ٧- تفسير كتاب «العلل والأعراض» لجالينوس.
- ٨- تفسير كتاب «تعرف علل الأعضاء الباطنة» لجالينوس.
- ٩- تفسير كتاب «النبض الكبير» لجالينوس.
- ١٠- تفسير كتاب «الحميات» لجالينوس.
- ١١- تفسير كتاب «البحران» لجالينوس.
- ١٢- تفسير كتاب «أيام البهران» لجالينوس.
- ١٣- تفسير كتاب «حيلة البر» لجالينوس.
- ١٤- تفسير كتاب «تدمير الاصحاء» لجالينوس.
- ١٥- تفسير كتاب «منافع الاعضاء» لجالينوس.
- ١٦- تفسير جوامع كتاب «الترايق» لجالينوس.
- ١٧- جوامع كتاب «القصد» لجالينوس.
- ١٨- كتاب «الرد على برقلس» ثمان عشرة مقالة.
- ١٩- كتاب «فى أن كل جسم متناه فقوته متناهية».
- ٢٠- كتاب «الرد على أرسطو طاليس» ست مقالات.
- ٢١- مقالة يرد فيها على نسطورس.
- ٢٢- كتاب يرد فيه على قوم لا يعرفون. مقالتان.

٢٣- مقالة أخرى يرد فيها على قوم آخر.

٢٤- مقالة في النبض.

٢٥- نقضه للثمان عشرة مسألة لديد وخس. برقلس الأفلاطوني.

٢٦- شرح كتاب إيساغوجي لفرفوريوس.

ويبدو من كلام ابن أبي أصيبعة أن الكتب الستة عشر التي ألفها هؤلاء الرواد من أطباء الإسكندرية النصارى كانت تتمثل مناهج تعليم الطب في الإسكندرية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ تعليم الطب. ثم يعقب على ذلك بقوله :

وللإسكندرانيين أيضا جوامع كثيرة في العلوم الكمية والطب، ولا سيما لكتب جالينوس، وشروحاتها لكتب أبقراط.

فأما الأطباء المذكورون من النصارى وغيرهم ممن كان معاصرا هؤلاء الأطباء الإسكندرانيين، وقريبا من أزمنتهم فمنهم : شمعون الراهب، المعروف بطيبويه.

وأهرن القس صاحب الكناش، وألف كناشه بالسريانية، ونقله ما سرجيس إلى العربى، وهو ثلاثون مقالة. وزاد ما سرجيس مقالتين.

ويوحنا بن سرابيون، وجميع ما ألف سريانى. وكان والده سرابيون طبيباً من أهل باجرمى. وخرج ولده طبيبين فاضلين وهما : يوحنا وداوود، وليوحنا بن سرابيون من الكتب: كناشة الكبير، اثنتا عشرة مقالة. كناشة الصغير، وهو المشهور، سبع مقالات. ونقله الحديثى الكاتب لأبى الحسن بن نفيس المتطبب في سنة ثمان عشرة وثلاثمائة، وهو أحسن عبارة من نقل الحسن بن البهلول الأوانى الطبرهاني ونقله أيضا أبو البشر متى.

ومنهم : انطيلس وبرطلاوس، وسندهشار، والقهلان، وأبو جريح الراهب، وأوراس وبوينوس البيروتى، وسيورخنا، وفلاعوسوس، وعيسى بن قسطنطين ويكنى أبا موسى، وكان من جملة أفاضل الأطباء، وله من الكتب: كتاب الأدوية المفردة، كتاب فى البواسير وعللها وعلاجها، وأرس، وسرجس الرأس عينى، وهو أول من نقل كتب اليونانيين على ما قيل إلى لغة السريانيين، وكان فاضلا وله مصنفات كثيرة فى الطب والفلسفة، واطنوس الأمدى صاحب الكناش المعروف ببقوقنا، ويريغوريوس صاحب الكناش.

وأكثر كتب هؤلاء موجودة ، وقد نقل الرازى كثيرا من كلامهم فى كتابة الكبير الجامع المعروف «بالحاوى».

★ الطب فى الجزيرة العربية :

لم تكن الظروف الجغرافية والمناخية وطبيعة العلاقات القبلية السائدة فى جزيرة العرب فى العصور القديمة- وحتى فى العصور الوسطى- تسمح بنمو حضارة مماثلة لتلك التى أتاحت لأقاليم متميزة جغرافيا كالإسكندرية وفارس والعراق والشام وشمال أفريقية حيث المياه والأنهار والحياة الاجتماعية المستقرة. ولذلك لم ينتشر التعليم فى المجتمعات البدوية فى الجزيرة إلا متأخرا جدا بعد ظهور الإسلام حين ظهرت تجمعات علمية محدودة فى كل من مكة والمدينة والطائف تدرس العلوم الشرعية والعربية ، ومع ذلك فلم تبلغ فيها ما بلغته الحواضر العربية الأخرى كالكوفة والبصرة وبغداد ودمشق والقاهرة وغيرها من المدن المفتوحة والعواصم العلمية.

وفى تأريخه للطب وتعليمه فى الجزيرة العربية اقتصر حديث ابن أبى أصيبعة على نفر من أولئك الأطباء الذين اشتهروا فى عصر النبوة والخلافة الراشدة والدولة الأموية وهم:

- ١- الحارث بن كلدة الثقفى (تعلم الطب فى بلاد فارس وقابل كسرى).
 - ٢- النضر بن الحارث بن كلدة الثقفى (ابن خالة النبى ﷺ قتل كافرا فى غزوة بدر).
 - ٣- ابن أبى رمثة التميمى (كان طبيبا وجراحا على عهد النبوة).
 - ٤- عبد الملك بن أبجر الكتانى (كان مقيما فى الإسكندرية ثم انتقل إلى أنطاكية وحران).
 - ٥- ابن أثال (طبيب معاوية بن أبى سفيان - نصرانى دمشقى).
 - ٦- أبوالحكم (نصرانى شامى وكان طبيبا وخبيراً بالأدوية على عهد الأمويين).
 - ٧- حكم الدمشقى (ت سنة ٢١٠هـ وعاش ١٠٥ سنة).
 - ٨- عيسى بن حكم الدمشقى (له كتابان أحدهما فى الطب والثانى فى منافع الحيوان).
 - ٩- ثيادوق (طبيب الحجاج بن يوسف الثقفى وله كتابان أحدهما فى الأدوية).
 - ١٠- زينب طبيبة بنى أود (يبدو أنها كانت طبيبة عيون).
- وباستثناء إشارته إلى أن بعض هؤلاء سافر فى البلاد وتعلم الطب فى رحلاته لا نجد إشارة ذات قيمة إلى "تعليم" بمعنى الكلمة فى الجزيرة العربية خلال تاريخها الجاهلى والإسلامى والأموى. ولكن بقيام الدولة العباسية انتقل الطب العربى انتقاله مفاجئة بسبب بدء الترجمة فى عهد الأمويين وازدهارها فى عصر العباسيين الذين اتخذوا بغداد عاصمة لدولتهم بدل دمشق عاصمة الأمويين.

وبذلك انتقل مركز الإشعاع الحضارى إلى العراق.

تعليم الطب في العراق :

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ، وفي تطور سريع أنشأ العباسيون لأنفسهم دولة عصرية ذات سلطة مركزية قوية. وذات قوة عسكرية ضخمة بعد أن فتحوا فارس وبلاد الروم ووصل نفوذهم إلى الشرق والغرب. وانفتحوا على ثقافات الحضارات غير العربية مثل الحضارات الهندية والفارسية واليونانية والفرعونية. وقد أتيح لحكام العباسيين أن يتقرب إليهم ذوا الخبرات وأصحاب المواهب من شتى الأصقاع طمعا في السلطة والجاه والمال. ومن ثم فقد اعتمد العباسيون على أجانب من مجالات عديدة، كان من بينها الطب والحراسة الخاصة والجيش وما نكبه البرامكة الأمثال لتغلغل النفوذ الأجنبي على كافة الأصعدة سياسيا وتنفيذيا وعسكريا.

وقد ترجم ابن أبى أصيبعة للأطباء الذين اشتهروا في العراق في عهد الدولة العباسية الأول ومنهم :

- جوروبيوس بن جبرائيل. الذى كان طبيبا لأبى جعفر المنصور ، وله كتاب في الطب باللغة السريانية ترجمة حنين بن إسحق فيما بعد.
- بختشوع بن جورجس (له كتاب مختصر في الطب).
- جبرائيل بن بختشوع بن جورجس كان طبيب الرشيد وخدمه ثلاثا وعشرين سنة وله عدة كتب ذكرها ابن أبى أصيبعة.
- بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع.
- عبد الله بن جبرائيل ولعله من أهم هذه الأسماء التى كانت تمثل بدايات نهضة الطب في العراق لأن له عدة كتب منها :

- مقالة في الاختلاف بين الألبان (كتبها سنة ٤٤٧ هـ).
 - منافسة الأطباء (كتبه سنة ٤٢٣ هـ).
 - التواصل إلى حفظ التناسل (كتبه سنة ٤٤١ هـ).
 - تذكرة الحاضر وزاد المسافر.
 - طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها.
 - خصيب.
 - عيسى المعروف بأبى قريش (كان صيدلانيا).
 - اللجلاج (من أطباء المنصور).
 - عبد الله الطيفورى.
 - يزيد بن زيد بن يوحنا (من أطباء المأمون).
 - عبد مرسى بن زيد (له كتاب "التذكرة" فى الطب).
 - سابور بن سهل (كان ملازما لبيمارستان جند بسابور ومعالجة المرض به) .
- ونال الحظوة عند المتوكل وخلفائه وله كتاب «الاقرباذين» الكبير ويبدو من حديث ابن أبى أصيبعة عنه أنه كان أحد المراجع التى يعول عليها فى البيمارستان فى الصيدلية وله كتب أخرى).

مراحل تعليم الطب

في الحضارة الإسلامية

تحدث ابن أبي أصيبعة عن تعليم الطب في مصر دون أن يهتم بتحديد تواريخ دقيقة للظواهر العلمية- التعليمية التي تناولها.

ولكن من الممكن الاستناد إلى بعض إشارات الجانية والقول بأنه أرخ لتعليم الطب في الإسكندرية قبيل وأثناء الفتح الإسلامي لمصر سنة ٢٠ هـ فهو ينقل عن المختار بن الحسن بن بطلان (من أهل بغداد) قوله:

"إن الإسكندرانيين الذين جمعوا كتب جالينوس الستة عشر وفسروها كانوا سبعة وهم: اصطفن، وجاسيوس، وثاودوسيوس، وأكيلوس، وانقيلاوس، وفلاذيسوس، ويحيى النحوى، وكانوا على مذهب المسيح" (ص ١٥١).

ثم يقول: "وعمر من هؤلاء الإسكندرانيين يحيى النحوى الإسكندراني حتى لحق أوائل الإسلام. . وكان في أول أمر اسقفاني بعض الكنائس بمصر. ولما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه دخل إليه وأكرمه ورأى له موضعا. (ص ص ١٥١ - ١٥٢).

ويذكر أن الإسكندرانيين كانوا يعلمون الطب من خلال تدريس كتب جالينوس الستة عشر في سبع مراحل أو مراتب:

المرحلة الأولى:

جعلوها بمنزلة (المرحل) إلى صناعة (الطب) ويررس فيها (الطالب) أربعة كتب:

أ- كتاب "الفرق" ويتناول المبادئ العامة للعلاج حسب التجربة أو القياس.

- ب- كتاب "الصناعة الصغيرة" ويتناول المبادئ العامة للطب النظرى والعملى.
- ج- كتاب "النبض الصغير" ويتناول المبادئ العامة لاستخدام النص كوسيلة للتشخيص.
- د- كتاب "أغلقن" - تسمية اغريقية - يتناول التآنى فى شفاء الأمراض.
- المرحلة الثانية:**

تررس فيها أربعة كتب أيضا هي:

- أ- كتاب «الاسقطسات» ويصفه ابن أبى أصيبعة بأنه أول كتاب يصلح أن يبدأ به من أراد استكمال صناعة الطب. ويتناول هذا الكتاب الجسم الإنسانى وما يطرأ عليه من تغييرات.
- وعلى حد تعبير ابن أبى أصيبعة فإن هذا الكتاب:

"يستفاد منه أن بدن الإنسان وجميع ما يحتاج إليه سريع التغير قابل للاستحالة فمن ذلك اسقطسات البدن القريبة منه وهى الأعضاء المتشابهة الأجزاء - أعنى العظام والأعصاب والشرابين والعروق والاغشية واللحم والشحم وغير ذلك، واسقطسات هذه الأعضاء الأخلط - أعنى الدم والصفراء والسوداء والبلغم، واستقطسات هذه الأخلط النار والهواء والماء والأرض، فإن مبدأ التكوين من هذه الأربعة، وأخذ الانحلال إليها. وأن هذه الاسقطسات قابلة للتغيير والاستحالة. وهذا الكتاب هو أول كتاب يصلح أن يبدأ به من أراد استكمال تعليم صناعة الطب".

- ب- كتاب «المزاج» ويستفاد منه معرفة أصناف المزاج وبم يتقوم كل واحد منها ولعله يقصد بهذا ما يشيع فى الكتب القديمة من أن لكل إنسان مزاجا خاصا به يدل على طبيعته التى قسموها إلى أربعة أنواع: نارية وترابية وهوائية ومائية.
- ج- كتاب «القوى الطبيعية» ويتناول القوى التى تؤثر فى البلدان وأسباب تأثيرها وأعراضها.

د- كتاب «التشريح الصغير» ويتناول التعريف بأعضاء البدن وخواصها ويشير ابن أبى أصيبعة إلى أن هذه المرحلة من المراحل المبكرة لتعليم الطب تهدف إلى تشويق طالب الطب إلى التعمق فى دراسة بقية مؤلفات جالينوس فيقول: "وهذه الكتب التى فى هذه المرتبة الثانية يستفاد من جميعها الأمور الطبيعية للبدن، أعنى التى قوامه بها. وإذا نظر فيها محب التعليم اشتاق أيضا إلى النظر فى كل ما يتعلق بطبيعة البدن. أما كتاب المناخ فيشير فيه إلى مقالاته فى خصب البدن، ومقالته فى الهيئة الفاضلة، ومقالته فى سوء المزاج المختلف وكتابه فى الأدوية المفردة ونحو هذا وأما كتاب القوى الطبيعية فيشوق إلى كتابة فى المنى، وكتابه فى منافع الأعضاء وسائر ما وضعه جالينوس فى القوى والأرواح والأفعال. وأما كتاب التشريح الصغير فيشوق إلى كتابة فى عمل التشريح ونحوه".

المرحلة الثالثة:

ويدرس فيها الطلاب ما يسمى فى كليات الطب المعاصرة باسم (الباثولوجيا) أو علم معرفة الأمراض وأعراضها وهى مرحلة متوسطة فى دراسة الطب.

يقول ابن أبى أصيبعة عن هذه المرحلة:

"وأما المرتبة الثالثة: فكتاب واحد فقط فيه ست مقالات، وهو كتاب "العلل والاعراض" وجالينوس وضع مقالات هذا الكتاب متفرقة، وإنما الاسكندرانيون جمعوها وجعلوها فى كتاب واحد. يستفاد منه معرفة الأمراض وأسبابها والاعراض الحادثة عن الأمراض.

وهذا باب عظيم الغناء في صناعة الطب، على رأى أصحاب القياس وهو اصل عظيم، إذا وقف الإنسان على ما فى هذا الكتاب وفهمه لم يخف عليه شئ من صناعة الطب".

المرحلة الرابعة:

وتغطى الدراسة فيها الأمراض الباطنية على مستويين أولهما تدرس فيه أعراض الأمراض الباطنة من خلال المظاهر البدنية الخارجية أى أن التشخيص هنا يقوم على الملاحظة، والمستوى الثانى تدرس فيه الأمراض الباطنية بدلالة النبض.

يقول ابن أبى أصبيعة: وأما المرتبة الرابعة فكتابان أحدهما:

كتاب "تعرف علل الأعضاء الباطنة" ست مقالات، يستفاد منه تعريف كل علة من العلل التى تحدث فى الأعضاء الباطنة، فإن هذه الأعضاء لا تدرك أمراضها بالعيان لأنها خفية عن الحس. فيحتاج إلى أن يستدل عليها بعلامات تقوم كل واحدة منها، فإذا ظهرت العلامات المقومة تيقن أن العضو الفلانى علة كذا.

مثاله: ذات الجنب: ورم حار يحدث فى الغشاء المستبطن للأضلاع والعلامة التى تقومه ضيق النفس، والوجع الناحس والحمى والسعال. فإن هذه إذا اجتمعت علم أن فى الغشاء المستبطن للأضلاع ورما حارا.

ولم يضع جالينوس كتابا فى تعرف علل الأعضاء الظاهرة إذا كانت هذه العلل تقع تحت العيان فيكتفى فى تعريفها نظرها بين يدى المعلمين عيانا فقط.

والثانى «كتاب النبض الكبير» وهو ينقسم إلى أربعة أجزاء، كل جزء منه أربع مقالات. يستفاد من الجزء الأول منه: معرفة أصناف النبض، وجزئيات كل صنف منها. ومن الثانى: تعريف إدراك كل واحد من أصناف النبض، ومن الثالث:

تعريف أسباب النبض. ومن الرابع: تعريف منافع أصناف النبض. وهذا باب عظيم النفع في الاستدلال على الأمراض ومعرفة قواها ونسبتها إلى قوة البدن.

المرحلة الخامسة:

وهي مخصصة لدراسة الأمراض المعدية كالحميات وما شابهها. ويدرس فيه الطالب ثلاثة كتب تستوفى أصناف هذه الأمراض وأعراض كل منها ومضاعفاته وطرق علاجه.

يقول ابن أبي أصيبعة: وأما المرتبة الخامسة فثلاثة كتب:

الأول منها: «كتاب الحميات» مقالتان. يستفاد منه معرفة طبائع أصناف الحميات، وما يستدل به على كل صنف منها.

والثاني: «كتاب البهران» ثلاث مقالات يستفاد منه معرفة أوقات المرضى ليعطى في كل وقت منها ما يوافق فيه، ومعرفة ما يؤول إليه الحال في كل واحد من الأمراض هل يؤول أمره إلى السلامة أم لا؟ وكيف يكون؟ وبماذا يكون؟.

والثالث: «كتاب أيام البهران» وهو أيضا ثلاث مقالات. يستفاد منه معرفة أوقات البهران، ومعرفة الأيام التي يكون فيها، وأسباب ذلك وعلاماته.

المرحلة السادسة:

وبها تبدأ الدراسة التطبيقية بعد أن يكون الطالب قد أحاط علما بالتشريح والأمراض. وفي هذه المرحلة تبدأ دراسة طرق العلاج وتشبه ما يسمى بعلم دراسة الأدوية في لغتنا المعاصرة.

يقول ابن أبي أصيبعة:

وأما المرتبة السادسة فكتاب واحد. وهو «كتاب حيلة البر» أربع عشرة مقالة يستفاد منه قوانين العلاج على رأى أصحاب القياس في كل واحد من الأمراض.

وهذا الكتاب إذا نظر فيه الإنسان اضطره إلى أن ينظر في كتاب الأدوية المفردة، وفي كتب جالينوس في الأدوية المركبة- أعنى قاطاجانس، والميامر، وكتاب المعجونات ونحو هذه الكتب.

المرحلة السابعة:

وعلى الرغم من أن هذه المرحلة هي المرحلة الأخيرة في دراسة الطب فإن الاهتمام فيها ينصب على الوقاية كما هو واضح من كلامه. إذ يقول عنها: وأما المرتبة السابعة فكتاب واحد. وهو «كتاب تدبير الأصحاء» ست مقالات يستفاد منه حفظ صحة كل واحد من الأبدان وهذا الكتاب إذا نظر فيه الإنسان اضطره إلى أن ينظر في كتاب الأغذية، وفي كتابه في جودة الكيموس ورداءته وفي كتابه في التدبير الملطف، وفي شرائط الرياضة. مثال ذلك: ما في كتاب جالينوس في الرياضة بالكرة الصغيرة ونحو هذا. رأى ابن أبي أصيبعة في هذا التقسيم :

إن التدريس في المراحل السابقة لم يكن يتم على شكل «سلم تعليمي» أو دراسة نظامية خاضعة لوقت زمني محدد. بل كان يتم كما هو معروف باسم (المدارس عديمة الصفوف) *Ungnaded Schools* بمعنى أن الطالب ينتقل من المرحلة إلى المرحلة التالية فور انتهائه من متطلبات المرحلة الأولى وفقا لقدراته. وقد علق ابن أبي أصيبعة على هذا التقسيم بقوله:

"فالكتب الستة عشر التي اقتصر الإسكندرانيون على تعليمها تدعو الناظر فيها إلى النظر في جميع كتب جالينوس التي استكمل بها صناعة الطب، مثال ذلك: أن النظر في كتاب «آلة الشم» يتعلق بما في المرتبة الثانية. والنظر في كتابه «فى علل التنفس» يتعلق أيضا بهذه المرتبة. والنظر في كتابه «فى سوء التنفس»، وفى

كتابه «فى منفعة التنفس» وكتابه «فى منفعة النبض» وكتابه «فى حركة الصدر والرئة» وكتابه «فى الصوت» وكتابه «فى الحركات المعتاصة»، وكتابه «فى أدوار الحميات»، وكتابه «فى أوقات الأمراض»، وغير ذلك من كتبه ومقالاته ورسائله. كل واحد منها له تعلق بواحدة من المراتب السبع. أو بأكثر من مرتبة واحدة تدعو الضرورة إلى النظر فيه، فإذا ما فعله الاسكندرانيون فى ذلك حيلة حسنة فى حث المشتغل بها على التبحر فى صناعة الطب وأن تؤديه العناية والاجتهاد إلى النظر فى سائر كتب جالينوس.

قال أبو الفرج ابن هندو فى كتاب «مفتاح الطب»: إن هذه- الكتب التى اتخذها الاسكندرانيون من كتب جالينوس وعملوا لها جوامع وزعموا أنها تغنى عن متون كتب جالينوس، وتكفى كلفة ما فيها من التوابع والفصول". قال أبو الخير بن الخمار وهو استاذ أبى الفرج بن هندو، "أنا أظن أنهم قد قصرُوا فيما جمعوا من ذلك، لأنهم يعوزهم الكلام فى الأغذية والاهوية والأدوية". قال والترتيب أيضا قصرُوا فيه، لأن جالينوس بدأ فى التشريح ثم صار إلى القوى والأفعال ثم إلى الاسطقسات".

قال أبو الفرج: "وأنا أرى أن الإسكندرانيين إنما اقتصروا على الكتب الستة عشر، لا من حيث هى كافية فى الطب وحماية للغرض، بل من حيث افتقرت إلى المعلم واحتاجت إلى المفسر. ولم يكن أن يقف المتعلم على أسرارها والمعانى الغامضة فيها من غير مذاكرة ومطارحة، ومن دون مراجعة ومفاوضة.

وبعد أن أورد ابن أبى أصيبعة الرأيين السابقين لآبى الفرج بن هندو (٢٣) وأبى الخير بن الخمار (٢٤) انتقد آراءهما فقال:

"فأما الكتب التى ذكرها الأستاذ أبو الخير بن الخمار فالطبيب مضطر إلى معرفتها وإضافتها إلى الكتب التى عدناها. غير أنه يمكنه من نفسه الوقوف على معانيها واستنباط الأغراض منها بالقوة المستفادة من الستة عشر التى هى القوانين لما سواها والمراقى إلى ما عداها. فإن قلت: فما حجة الإسكندرانيين فى ترتيبهم لهذه الكتب؟ قلنا: إنهم رتبوا بعضها بحسب استحقاقه فى نفسه، بمنزلة كتاب الفرق، فإنه وجب تقديمه لتتقى به نفس المتعلم من شكوك أصحاب التجربة، والمحتالين ومغالطتهم ويتحقق رأى أصحاب القياس فيقتدى بهم. وبمنزلة الصناعة الصغيرة فإنها لما كانت فيها شرارة من صناعة الطب، كان الأولى أن يتبع بها كتاب الفرق ويجعل مدخلا إلى الطب. ورتبوا بعضها بحسب ما توجيه إضافته إلى غيره بمنزلة الكتاب الصغير فى النبض فإنه جعل تابعا للصناعة الصغيرة، لأن جالينوس ذكر فيها النبض عند ذكره لمزاج القلب ووجب أيضا تقديمه على كتاب جالينوس إلى أغلوقن، لأنه تكلم فى هذا الكتاب فى الحميات والنبض وهو أول شئ يعرف منه أمر الحميات.

على أن الترتيب الذى ذكره الأستاذ أبو الخير أن جالينوس أشار إليه، هو لعمرى الترتيب الصناعى، وذلك أنه يجب على كل ذى صناعة أن يتدرج فى تعليمها من الأظهر إلى الأخفى، ومن الأخير إلى المبدأ والتشريح هو علم البدن وأعضائه، وهذه هو أول ما يظهر لنا من الإنسان، وأن آخر ما تفعله الطبيعة. فإن الطبيعة تأخذ أولا الاسقطسات، ثم تمزجها فيحصل منها الاخلاط، ثم تفعل القوى والأعضاء. فيجب أن يكون طريقنا فى التعليم بالعكس من طريق الطبيعة فى التكوين، ولكننا ندع هذا الاضطراب، ونرضى ترتيب الإسكندرانيين، لأن العلم حاصل على كل حال وخرق اجماع الحكماء معدود من الخرق (٢٥).

أى أن ابن أبى أصيبعة يؤيد التقسيم السكندري لمراحل الدراسة. ويستنتج من كلامه الآتى:

- ١- أنه يرى أن على الطالب أن يبذل جهدا فيما لا يحتاج إلى معلم وهو ما نسميه فى عصرنا بـ «التعليم الذاتى» كما وضع من رده على أبى الخير بن الخمار.
- ٢- أن التهيئة النفسية «التشويق» مسألة ضرورية فى ابتداء التعليم.
- ٣- إن ابن أبى أصيبعة انتبه إلى مبدأ هام من مبادئ التعليم وهو الانتقال من البسيط إلى المعقد.

المناهج والمقررات الدراسية: (**)**

كان الطب يدرس فى مصادر يونانية وعربية، أما المصادر اليونانية فكتب بقراط وكل منها: كتاب الأجنة، وهو ثلاث مقالات: الأولى فى تكون المنى، والثانية فى تكوين الجنين، والثالثة فى تكون الأعضاء، وكتاب الأخلاط، وكتاب الأمراض الحادة، وهو فى ثلاث مقالات أيضا: الأولى فى تدبير الغذاء، والثانية فى مداواة بالتكميد والفصد والمسهل والثالثة فى التدبير بالخمير، وماء العسل والاستحمام. وكتاب الأمراض الوافدة وتدبيرها وكتاب الأهوية والمياه والبلدان، وهو فى ثلاث مقالات كذلك: الأولى فى تعرف أمزجة البلدان، وما يتولد من الأمراض البلدية، والثانية فى تعرف أمزجة المياه، وفصول السنة وما يتولد منها من الأمراض، والثالثة فى كيفية الحذر مما يولد الأمراض البلدية، وكتاب البثور وفيه خمس وعشرون قضية، وكتاب البول، وكتاب الفصول، الذى ظفر بعدة شروح فيما بعد حيث: شرحه أبو الفرج بن يعقوب الشامى، وأبو الحجاج يوسف الإسرائيلى وعمر بن على بن

البدوخ الدمشقي، وصدقة السامري، ولم يتمه، وهذب رضى الدين الرحبي شرح ابن الطبيب لكتاب الفصول، وسار على نهج هذه الفصول موسى بن ميمون، فألف فصول موسى، نقل فيها عن الرازي وابن سينا وابن وافد، وابن زهر، وتبحث في البواسير والرسو وغيرهما، وشرح موسى أيضا فصول بقراط، ولبقراط أيضا كتاب سيلان الدم وكتاب- الكسر والجبر، وهو ثلاث مقالات يتضمن كل ما يحتاج إليه الطبيب من هذا الفن، وكتاب اللحوم، وكتاب تقدمه المعرفة، الذي شرحه عمر بن على بن البدوخ الدمشقي.

وكان لجالينوس ستة عشر كتابا، تدرس في ذلك العصر، منها كتاب العلل والأعراض الذي علق عليه السديد بن أبي البيان، وشرح بعضه المظفر بن على القرشي المتوفى بدمشق سنة ٦١٢هـ، ومنها كتاب منافع الأعضاء، وكتاب الصناعة الصغيرة، الذي شرحه عدنان بن نصر، وكتاب النبض، وكتاب في التآني لشفاء الأمراض، وكتاب المزاج.

وقد اختصر الستة عشر كتابا موسى بن ميمون. وكان لديسقوريدس كتاب يدعى الأدوية، شرحه ابن البيطار.

أما الكتب العربية التي كانت تدرس في الطب يومئذ، فكتاب المسائل لحنين ابن إسحق. وقد اختصره حينا، وشرحه حينا، وعلق عليه حينا آخر، كثير من أطباء ذلك العصر. ومن أهم ما عني به يومئذ ما لم ينله كتاب سواء، فاختصر، وشرح ووضعت عليه الحواشي الكثيرة والتعليق العدة.

كذلك حظى كتاب الحاوي للرازي المتوفى سنة ٣٢١هـ- بكثير من العناية: فاختصر حينا، وعلق عليه حينا آخر.

وكان الراغب في دراسة الطب، يحفظ أولاً بعض كتبه، مثل «مسائل حنين» و «الفصول لبقرات» ، و «وتقدمة المعرفة» له، ويعرف معناها، ويدرس شروحها، ثم يقرأ كتب العلاج: كـ بعض كتب الرازي، وبـالغ شمس الدين الكلى محمد بن إبراهيم، فـحفظ الكتاب الأول من «القانون»، ولعل هذه الصلة التي تربط الطب بكتب اليونان (وكان الطب معدوداً من علوم الحكمة ودرس كثير من الأطباء علوم الحكمة على اختلاف ألوانها) هي التي جعلت هذه الطائفة تسمى بالحكماء. ولا تزال هذه التسمية باقية إلى اليوم (*****).

على أن كثيراً جداً من الأطباء لم يقف عند حد هذه الثقافة الطبية، بل درس غيرها من الثقافات فرأينا من بين الأطباء الفقيه، والأديب، والنحوي والشاعر والمتكلم والأصولي، والمحدث، والمؤرخ، واللغوي، والعالم بالخلاف والفلكى، والمسفر، والمقري، والمتكلم والمهندس، والرياضي. ويطول بى الحديث إذا ضربت أمثلة لذلك، وربما كان فيمن سنترجم لهم نماذج لبعض هذه الألوان.

كان طالب الطب يدرس مادته نظرياً وعملياً، يدرس الكتب على أساتذته ويلتزم مشاهدة المرضى فى البيمارستان، ويعرف أمراضهم، وما يصف الأطباء لهم، وما يكتبونه للمرضى فى تذكرتهم، التى كانت تسمى يومئذ: دستوراً.

خرق تدريس الطب عند المسلمين

أورد ابن أبى أصيبعة فى مواضع متفرقة من كتابة طريقتين من طرق تعليم الطب هما:

١- طريقة التلقين، أو التدريس النظرى وكانت الدروس النظرية التى تدرس بهذه الطريقة تشمل التشريح والكيمياء والفسولوجيا (وظائف الأعضاء) والباثولوجيا (علم الأمراض) والعقاقير والأدوية.

٢- التدريب العملى، أو الدروس العملية، وكانت تتم فى صورة حلقات من المتعلمين تقف حول المريض ويشرح لهم الأستاذ الحالات الصعبة أو النادرة. إلا أن ابن أبى أصيبعة تعرض لمسألة «التعليم الذاتى» أو التعليم الفردى كما أشرنا فى السطور السابقة فى تعليقة على مراحل تعليم الطب. ولذا يحسن أن نبسط رأيه هنا قبل الخوض فى تفصيل طريقتى التدريس اللتين تعرض لهما تأسيسا على أن التعلم من حيث الشكل- ذاتيا أو اعتمادا على معلم- أولى بالتناول قبل تفصيل القول فى طريقة التدريس.

وقد تعرض ابن أبى أصيبعة لهذه المسألة بالتفصيل فى ترجمته لابى الحسن على بن رضوان^(٢٧)، فقال:

"أقول: وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان يعاصره من الأطباء وغيرهم، وكذلك على كثير ممن تقدمه. وكانت عنده سفاهة فى بحثه، وتشنيع على ما يريد مناقشته. وأكثر ذلك يوجد عندما كان يرد على حنين بن اسحق، وعلى أبى الفرج ابن الطيب، وكذلك أيضا على أبى بكر محمد بن زكريا الرازى. ولم يكن لابن رضوان فى صناعة الطب معلم ينسب إليه، وله كتاب فى ذلك يتضمن أن

تحصيل الصناعة من الكتب أوفق من المعلمين. وقد رد عليه ابن بطلان هذا الرأي وغيره في كتاب مفرد، وذكر فصلا في العلل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف إذا كان القول واحدا. وأورد عدة علل:

الأولى منها تجرى هكذا: وصول المعاني من النسيب إلى النسيب، خلاف وصولها من غير النسيب إلى النسيب. والنسيب الناطق أفهم للتعليم بالنطق وهو المعلم، وغير النسيب له جماد وهو الكتاب، ويعد الجماد من الناطق مطيل لطريق الفهم، وقرب الناطق من الناطق مقرب للفهم، فالفهم من النسيب، وهو المعلم أقرب وأسهل من غير النسيب، وهو الكتاب.

والثانية، هكذا: النفس العلامة علامة بالفعل، وصورة الفعل عنها يقال له تعليم، والتعليم والتعلم من المضاف. وكلما هو للشيء بالطبع أخص به مما ليس له بالطبع. والنفس المتعلمة علامة بالقوة، وقبول العلم فيها يقال له تعلم، والمضافان معا بالطبع. فالتعليم من المعلم أخص بالمتعلم من الكتب.

والثالثة، على هذه الصورة: المتعلم إذا استعجم عليه ما يفهمه المعلم من لفظ نقله إلى لفظ آخر والكتاب لا ينقل من لفظ إلى لفظ. فالفهم من المعلم أصلح للمتعلم من الكتاب، وكل ما هو بهذه الصفة فهو في إيصال العلم أصلح للمتعلم.

والرابعة: العلم موضوعه اللفظ، واللفظ على ثلاثة أضرب: قريب من العقل وهو الذى صاغه العقل مثالا لما عده من المعاني، ومتوسط، وهو المتلفظ به الصوت، وهو مثال لما صاغه العقل، وبعيد، وهو المثبت في الكتب، وهو مثال ما خرج باللفظ. فالكتاب مثال مثال المعاني التي في العقل، والمثال الأول لا يقوم مقام المثل لعوز المثل، فما ظنك بمثال مثال مثال المثل. فالمثال الأول لما عند

العقل أقرب في الفهم من مثال المثال، والمثال الأول هو اللفظ، والثاني هو الكتاب وإذا كان الأمر على هذا فالفهم من لفظ المعلم أسهل وأقرب من لفظ الكتاب.

والخامسة: وصول اللفظ الدال على المعنى إلى العقل يكون من جهة حاسة غريبة من اللفظ، وهو البصر، لأن الحاسة النسبية للفظ هو السمع لأنه تصويت والشئ الواصل من النسيب، وهو اللفظ، أقرب من وصوله لمن الغريب، وهو الكتابة فالفهم من المعلم باللفظ أسهل من الكتاب بالخط.

والسادسة هكذا: يوجد في الكتاب أشياء تصدر عن العلم قد عدمت في تعليم المعلم وهو التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلط بزوغان البصر وقلة الخبرة بالإعراب، أو عدم وجوده مع الخبرة به، أو فساد الموجود منه واصطلاح الكتاب ما لا يقرأ وقراءة ما لا يكتب، ونحو التعليم ونمط الكلام ومذهب صاحب الكتاب، وسقم النسخ ورداءة النقل، وإدماج القارئ مواضع المقاطع، وخلط مبادئ التعليم، وذكر ألفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة، وألفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالثوروس وهذه كلها معوقة عن العلم. وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم. وإذا كان الأمر على هذا فالقراءة على العلماء أفضل وأجدى من قراءة الإنسان لنفسه. وهو ما أردنا بيانه.

قال: وأن آتيك ببيان سابع أظنه مصدقا عندك، وهو ما قاله المفسرون في الاعتياض عن السالبة البسيطة الموجبة المعدولة، فإنهم مجمعون على هذا الفصل لو لم يسمعه من أرسطوطاليس تلميذه: تاؤفرسطس وأوذيموس، فما فهم قط من كتاب. وإذا كان الأمر على هذا فالفهم من المعلم أفضل من الفهم من الكتاب ويحسب هذا يجب على كل محب للعلم أن لا يقطع بظن فربما خفى الصواب، وإذا

خفى الصواب علم الأشياء علما رديا، فثار عليه بحسب اعتقاده فى الحق أنه محال شكوك يعسر حلتها.

وواضح مما سبق أن ابن أبى أصيبعة يتبنى ما يمكن أن نطلق عليه: «المبادئ العامة للتدريس» وهى تقترب فى معطياتها العامة- من بعض مفاهيم علم النفس التعليمى المعاصر.

ويمكن تلخيصها فيما يلى:

- ١- أن المعلم ركن أساسى فى عملية التعليم للأسباب التالية:
 - أ- أنه قد يشرح اللفظ الغامض أو الفكرة الغامضة إذا وردت فى الكتاب.
 - ب- أن المعلم يعالج ما قد يكون فى الكتاب من أخطاء علمية أو طباعية.
 - ج- أن التفاعل الإنسانى بين المعلم والمتعلم يسهل عملية التعليم.
- ٢- أن الإدراك فى حالة التعليم من الكتاب إدراك بصرى فقط. أما فى حالة التعلم من المعلم فإن أكثر من حاسة تشترك فى عملية التعلم مما يجعل الإدراك أسهل وأشمل.
- ٣- أن لكل علم أسرار ومصطلحاته الفنية الدقيقة، وهذا يجعل الاعتماد على المعلم ضروريا لضمان التحصيل السليم.

التدريس النظرى :

أن طريقة التدريس النظرى كانت تتم فى خطوات تختلف من أستاذ إلى آخر ولكن النظام العام للطريقة الذى يمكن استنتاجه من مجموع ما ذكره ابن أبى أصيبعة فى تراجمة لمشاهير الأطباء الكبار مثل الرازى^(٢٨)، ومهذب الدين بن على^(٢٩). يمكن أن نتصوره على النحو التالى:

- يجلس الطلاب حول الأستاذ في ثلاثة صفوف دائرية الشكل تمثل ثلاثة مستويات تعليمية آخرها في الخلف المستجدون في التعليم، وأوسطهم أولئك الذين قضوا مدة في التعلم في الصفوف الخلفية. وفي المقدمة يجاور الأستاذ أنضج المتعلمين وأكثرهم خبرة وأقدمهم جلوساً في الحلقة أو نستطيع القول بأنهم الذين أوشكوا على التخرج وترك هذه الحلقة والانتقال إلى التدريب العملي.
- وليس من السهل استنتاج قدر الوقت الذي كان يقضيه الطالب في هذه المرحلة الدراسية فابن أبي أصيبعة لم يشر إلى ذلك. ولكن الواضح من أحاديثه في مواضع شتى أن الانتقال من صف إلى صف - داخل الحلقة - لم يكن يتم بإرادة الطلاب وإنما كان يتم بناء على رأى الأستاذ بعد أن يستوثق من جدارة الطالب وقدرته.
- وكان الطلاب يقرؤون في هذه الحلقة الكتب التي يختارها الأستاذ لهم سواء أكانت من مؤلفاته أم من مؤلفات غيره.
- وقد يترك الأستاذ طلاب الصف الأدنى إليه (المتميزين والأكثر نضجاً) يعتمدون على أنفسهم في القراءة وينشغل بالشرح لطلاب الصفين التاليين في الوقت نفسه.
- وتكون مهمة الأستاذ في جميع الأحوال مهمة إرشادية بالدرجة الأولى فهو لا يقرأ كتاباً واحداً ويشرحه للجميع كما كان عليه الحال في تدريس الفقه والنحو والأدب. بل إن مهمة الأستاذ هنا كانت مجرد الشرح أو التوضيح عندما يطلب منه الطلاب ذلك.

- وهناك صورة أخرى لمجلس التعليم النظرى كانت تتم غالباً من خلال التعليم الفردى فيقوم الأستاذ بتعليم كل طالب على حده من كتاب معين أو كما يقول ابن أبى أصيبعة.

«وكان الشيخ مهذب الدين رحمه الله إذا تفرغ من البيمارستان، وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرها وغيرهم، يأتى إلى داره ثم يشرع فى القراءة والدرس والمطالعة. ولا بد له من ذلك من نسخ. فإذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون إليه ويأتى قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين. وكان يقرأ كل واحد منهم درسه، ويبحث معه فيه، ويفهمه إياه بقدر طاقته ويبحث فى ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضوع يحتاج إلى فضل بحث، أو فيه أشكال يحتاج إلى تحرير. وكان لا يقرئ أحداً إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقرأه ذلك التلميذ وينظر فيه ويقابل به، فإن كان فى نسخة الذى يقرأ غلط أمره بإصلاحه. وكان نسخ الشيخ مهذب الدين التى تقرأ عليه فى غاية الصحة، وكان أكثرها بخطه وكان أبداً لا يفارقه إلى جانبه مع ما يحتاج إليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة كتاب الصحاح للجوهري، والمجمل لابن فارس^(٣٠). وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى. فكان إذا فرغت الجماعة من القراءة يعود هو إلى نفسه فيأكل شيئاً ثم يشرع بقية نهاره فى الحفظ والدرس»

ومن روايات ابن أبى أصيبعة يتضح أن طريقة التدريس النظرى الدائرية التى أشرنا عليها كانت هى السائدة فى مجلس تعليم الطب بصفة عامة بالشكل الذى أشرنا إليه ففى ترجمته للطبيب العالم ابن خطيب الرى^(٣١). يقول:

"وكان إذا جلس للتدريس يكون قريبا منه جماعة من تلاميذه الكبار، ثم زين الدين الكشي والقطب المصرى وشهاب الدين النيسابورى، ثم يليهم بقية التلاميذ وسائر الخلق على قدر مراتبهم، فكان من يتكلم فى شئ من العلم يباحثونه أولئك التلاميذ الكبار، فإن جرى بحث مشكل أو معنى غريب شاركهم الشيخ فيما هم فيه، وتكلم فى ذلك المعنى بما يفوق الوصف".

فنيات التدريس النظرى:

إن الأساليب الفنية للتلقين أو التدريس النظرى التى يمكن استنتاجها من خلال الترجمات المختلفة فى الكتاب تنحصر فى الأنماط التالية:

أ- القراءة على الأستاذ:

حيث يختار الأستاذ للطلبة كتابا معينا من المراجع الطبية التى يراها ملائمة لمستواهم أو لمستوى كل منهم. ويأخذ الطالب فى القراءة من هذا الكتاب على أستاذه فلا يتوقف إلا عندما يغمض عليه المعنى، أو يتدخل الأستاذ بالشرح عندما يرى ضرورة لذلك. ويستمر الوضع على هذه الوتيرة حتى ينتهى الكتاب فينتقل الطالب -أو مجموعة الطلبة- إلى كتاب جديد يمثل مستوى أرقى من السابق.

ب- الإملاء:

وهذه الطريقة كانت أكثر شيوعا فى دروس المحدثين -بتشديد الدال وكسرهما- أى أساتذة علم الحديث النبوى. ولكنها شاعت فى تدريس معظم العلوم العربية. وقد استخدمها بعض الأطباء الكبار كالرازى وغيره فى تزويد طلابهم بخبراتهم الشخصية وملاحظاتهم على المؤلفات التى يدرسونها.

ج- العرض:

ومعناه أن يعيد الطالب قراءة ما أملاه عليه أستاذه بصوت مرتفع على أستاذة للتأكيد من أنه لم يكتب شيئا خطأ أو للتأكد من أنه يفهم ما كتبه سماعا. وهذا النمط من أنماط التفاعل اللفظي بين الأستاذ والتلميذ يدل دلالة واضحة على عناية العلماء العرب بمسألة التعلم الفردي.

د- الشرح:

وهذا النمط هو أكثر فنيات التدريس النظري شيوعا. ويقوم الأستاذ فيه بالدور الأكبر من خلال تفسير النصوص والعبارات والمعاني الغامضة. أو ضرب الأمثلة على الحالات التي تحتاج إلى توضيح. ويبدو أن الكتب التي كانت تدرس لطلاب الطب باللغات السريانية والإغريقية كانت وراء غلبة هذا النمط على غيره من الانماط لحاجة الطلاب المتجددة إلى اتقان اللغات الأجنبية وأسرارها التعبيرية.

المقررات التي كانت تدرس نظريا:

كانت (الروس) النظرية تشمل:

١. الكيمياء والعقاقير:

يقول الرازي (من لم يكن له المام واسع بالكيمياء لا يستطيع أن يكونوا فيلسوفا)، ولا يستغرب هنا استعمال كلمة الفيلسوف لأن العرب كانوا يرون الطب والفلسفة علوما تتبغ من معين واحد ويسمونها علوم الحكمة. ومن هنا فقد شاع في التراث استخدام كلمة «الحكيم» للدلالة على الفيلسوف أو على الطبيب.

"وقد يراد بالحكيم الناظر في العيون «طبيب العيون خاصة» لا في الأبدان لأن هذا- أي الناظر في الأبدان- هو الطبيب" (٣٢).

ويبدو أن الرازي كان على علم بما تسببه العقاقير من مضاعفات أو آثار جانبية فهو يقول "إن قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية" وفي كتاب ابن

أبى أصيبعة تنتشر نماذج كثيرة لأسماء النباتات التي كان الأطباء يعتمدون عليها في صناعة الأدوية أو في العلاج بها مباشرة.

٢. التشريح؛

وعلى الرغم من أن الفكر الديني لم يكن أباح تشريح جسم الإنسان فإن علم التشريح كان أحد العلوم الأساسية الممهدة لدراسة الطب. وكان يدرس نظريا من كتاب جالينوس. بالإضافة إلى تجارب العرب في تشريح عربى.

٣. علم وظائف الأعضاء (الفسولوجيا)؛

يتضح من استعراض الكتاب أن هذا العلم كان أحد العلوم الضرورية التي تدرس فقد تكلم كثير من الأطباء عن العصاب وعن عصب الحس وعصب الحركة خاصة، وعن الجلد، كما تناولوا دراسة الحواس، وتحدثوا عن طبقات الأذن، الكبد القلب، الخصية العين، ... الخ.

٤. علم الأمراض (الباثولوجيا) ؛

وكانوا يصفونها (بالخيالية، وقد درسوها من خلال كتاب جالينوس فكانوا يحرصون على تعريف كل مرض ووصف أعراضه وصفا دقيقا بل الشروع في وصف العلاج. فقد تحدث الرازى عن أعراض بعض أمراض الكبد والكلى والحصبة والجدرى بل إنه تجاوز ذلك إلى ما يعرف اليوم باسم (أمراض المجتمع) أو البيئة حين تحدث عن (صحة المسافر) وكيفية تفادية للأوبئة والأمراض المعدية وربما أصبح التدقيق في معرفة الأمراض مزية يتميز بها الطبيب عن غيره وتدل على حنكته. فحين ترجم ابن أبى أصيبعة لموفق الدين يعقوب بن اسقلاب

(طبيب نظراني كان مقرباً من الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب توفي عام ٦٢٥هـ) قال عنه:

"وكان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث إنه كان إذا افتقد مريضاً لا يزال يستقصي منه عرضاً عرضاً، وما يشكو منه وما يجده من مرضه حالاً حالاً إلى أن لا يترك عرضاً يستدل به على تحقيق المرض إلا ويعتبره فكانت أبداً معالجاته لا مزيد عليها في الجودة. وكان الملك المعظم يشكر منه هذه الحالة. ٥. علم النبات؛

إذا كانت دراسة علوم الحيوان هي أساس دراسة التشريح، فإن دراسة علوم النبات كانت هي أساس علوم الأدوية وكان الأطباء العرب - كما يبدو من كلام ابن أبي أصيبعة - يعطون أهمية للنبات فيدرسونه من حيث آثاره العلاجية وبذلك عرفوا ما سموه بالأدوية المفردة وهم يقصدون بها ما كان يعالج به من النبات مباشرة دون إضافته إلى غيره والأدوية المركبة ويقصدون بها تلك التي يتم استخلاصها من خلط عدة عناصر نباتية أو غير نباتية.

وفي ترجمته لابن البيطار (ت ٦٤٦هـ) الذي يصفه بأنه "أوحد عصره وعلاقة وقته في معرفة النبات" يذكر ابن أبي أصيبعة أنه خرج معه خارج دمشق لمشاهدة أنواع من النباتات على الطبيعة.

وفي ترجمته لرشيد الدين الصوري (ت ٦٣٩هـ) يذكر أنه كان يخرج إلى جبل لبنان ويأخذ معه مصوراً ليصور له النباتات التي يدرسها في مراحل مختلفة من نموها وحين وضع كتاباً في الأدوية زوده بهذه الصور التي يستدل بها على ما يتوصل إليه من نتائج.

٦. مواد تثقيفية مساعدة:

وأهمها الفقه والنحو ولم يكن كل الأساتذة ملتزمين بتدريسها في مجالس تعليم الطب ولكن ابن أبي أصيبعة أشار إليها في تراجم عدد قليل منهم ويبدو أنها كانت مرتبطة باهتمامات الأستاذ الدينية أو اللغوية ولم تكن مقررا أساسيا من متطلبات المهنة.

التدريس العملي:

الواضح من بين ثنايا التراجم المختلفة في الكتاب أن الدروس العملية كانت تتم ميدانيا حول سرر المرضى في المستشفيات حيث يشرح الأستاذ الحالات التي يقرر تدريسها حالة بعد أخرى منتقلا بتلاميذه من سرير إلى سرير أو يكلف أحد الطلاب بتشخيص حالة من الحالات ويطلب منه وصف العلاج المناسب للحالة.

ففي ترجمته لأستاذه مهذب الدين بن علي يقول:

"ولما أقام الشيخ مهذب الدين بدمشق شرع في تدريس صناعة الطب، واجتمع إليه خلق كثير من أعيان الأطباء وغيرهم يقرأون عليه، وأقمت أنا بدمشق لأجل القراءة عليه.

وكان الحكيم مهذب الدين يظهر من ملح صناعة الطب ومن غرائب المداواة والتقصي في المعالجة والإقدام بصفات الأدوية التي تبرئ في أسرع وقت ما يفوق به أهل زمانه، ويحصل من تأثيرهم شيء كأنه سحر . ومن ذلك أننى رأيته يوما وقد أتى محموم بحمى محرقة وقواريره في غاية الحدة فاعتبر قوته، ثم أمر بأن يترك له في قذح بزور من الكافور مقدراً صالحاً عينه لهم في الدستور، وأن يشربه ولا يتناول شيئاً غيره، فلما أتينا من الغد وجدنا ذلك المريض والحمى قد انحطت عنه وقارورته ليس فيها شيء من الحدة. ومثل هذا أيضا أنه وصف في قاعة الممرورين لمن به المرض المسمى مانيا، وهو الجنون السبعى، أن يضاف إلى ماء الشعير في

وقت إسقائه إياه مقدار متوفر من الأفيون، فصلح ذلك الرجل وزال ما به من تلك الحال. ورأيته يوما في قاعة المحمومين وقد وقفنا عند مريض، وجست الأطباء نبضه فقالوا عنده ضعف ليعطى مرقة الفروق للتقوية فنظر إليه، وقال: أن كلامه ونظر عينيه يقتضى الضعف. ثم جس نبض يده اليمنى وجس الأخرى وقال: جسوا نبض يده اليسرى. فوجدناه قويا. فقال: انظروا نبض يده اليمنى وكيف هو من قريب كوعه قد انفرق العرق الضارب شعبتين، فواحدة بقيت التى تجس والأخرى طلعت فى أعلى الزند وامتدت إلى ناحية الاصابع. فوجدناه حقا. ثم قال: إن من الناس، وهو نادر، من يكون النبض فيه هكذا، ويشتبه على كثير من الأطباء ويعتقدون أن النبض ضعيف، وإنما يكون جسم لتلك الشعبة التى هى نصف العرق فيعتقدون أن النبض ضعيف. وكان فى ذلك الوقت أيضا فى البيمارستان الشيخ رضى الدين الرحبى، وهو من أكبر الأطباء سنا وأعظمهم قدرا وأشهرهم ذكرا فكان يجلس على دكه ويكتب لمن يأتى إلى البيمارستان، ويتوصف منه للمرضى أوراقا يعتمدون عليها ويأخذون بها من البيمارستان الأشرية والأدوية التى يصفها فكنت بعد ما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان، وأنا معهم، أجلس مع الشيخ رضى الدين الرحبى فأعطين كيفية استدلاله على الأمراض، وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم، وأبحث معه فى كثير من الأمراض ومداواتها. ولم يجتمع فى البيمارستان منذ بنى وإلى ما بعده من الزمان من مشايخ الأطباء كما اجتمع فيه فى ذلك الوقت من هؤلاء المشايخ الثلاثة وبقوا كذلك مدة".

ويذكر ابن أبى أصيبعة أن أستاذة مهذب الدين بن على عندما تقدمت به السن لم يتوقف عن تدريس الطب فيقول:

ووصل إلى دمشق إلى ملكها الأشرف في سنة ست وعشرين وستمائة وهو معه فولاه رئاسة الطب. وبقي كذلك مدية، وجعل له مجلسا لتدريس صناعة الطب ثم زاد به ثقل لسانه حتى بقي إذا حاول الكلام لا يفهم ذلك منه إلا بعسر. وكانت الجماعة تبحث قدامه فإذا استعصى معنى يجيب عنه بأيسر لفظ يدل على كثير من المعنى. وفي أوقات يعسر عليه الكلام فيكتبه في لوح وتنتظره الجماعة. ثم اجتهد في مداواة نفسه، واستفرغ بدنه بعدة أدوية مسهلة، وكان يتناول كثيرا من الأدوية والمعاجين الحارة ويغتذى بمثلها فعرضت له حمى وتزايدت به حتى ضعفت قوته وتوالت عليه أمراض كثيرة.

مراحل التدريس العملي للطب:

أ- مرحلة الكشف المبدئي:

يقدم لنا ابن أبي أصيبعة صورة لما كان يحدث في بداية التدريس الميداني حيث يقف الأستاذ أمام سرير المريض وحوله طلابه ثم تتبع الإجراءات التالية:

- ١- سؤال المريض عن اسمه وعمره وبلده.
- ٢- سؤاله عن الآلام التي يشعر بها وتاريخ شعوره بها.
- ٣- سؤاله عن الأغراض التي صاحبت الشعور بالآلم سلسلة.
- ٤- سؤاله عن أفراد عائلته وعما إذا كان أحد منهم قد شعر بالآلام نفسها في أي وقت من الأوقات.

بهذه الخطوات الأربع يكون الطلاب قد كونوا فكرة عن تاريخ الحالة وأثر الوراثة إن كان لها صلة بالمريض. ويقول الرازي عن هذه المرحلة: "ينبغي للطبيب ألا يدع مسألة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من داخل ومن خارج. ثم يقضى بالآقوى" (٣٣).

ب- مرحلة الفحص:

بعد ذلك يقوم الأستاذ بتوجيه طلابه إلى فحص المريض بعد أن يتداول معهم في المعلومات التي حصلوا عليها من المريض عبر الخطوات السابقة. وتنقسم مرحلة الفحص عادة إلى مستويين:

الأول: فحص عام شامل: يقول عنهما الرازي:

"ابدأ بدراسة حالات المريض وتأثير المرض عليه، وهل يستطيع السير منفرداً أم مستنداً وعلى أية جهة يستند. ووضع يديه أثناء السير، وهل هما على أعلى البطن أم أسفلها أم على الرأس أم على الصدر وتكلم معه لمعرفة هل هو مالك لقواه العقلية أم في حالة خمول وهل حالته تنذر بالخطر أم لا. بمجرد القاء نظرة عامة على المريض ويقول الطبيب على بن رضوان عن هذه المرحلة: (٣٤)

"تعرف العيوب هو أن تنظر إلى هيئة الأعضاء والسحنة والمزاج وملمس البشرة وتفقد أفعال الأعضاء الباطنة والظاهرة، مثل أن تنادي به من بعيد فتعتبر بذلك حال سمعه، وأن تعتبر بصره بنظر الأشياء البعيدة القريبة، ولسان بجودة الكلام، وقوته بشيل الثقل والمسك والضبط والمشى وإنحاء ذلك، مثل أن تنظر مشيه مقبلاً ومدبراً، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ممدود اليدين قد نصب رجليه وصفهما، وتعتبر بذلك حال أحشائه وتتعرف حال مزاج قلبه بالنبض وبالأخلاق ومزاج كبده بالبول وحال الاخلاط، وتعتبر عقله بأن يسأل عن أشياء، وفهمه وطاعته بأن يؤمن بأشياء، وأخلاقه إلى ما تميل بأن تعتبر كل واحد منها بما يحركه أو يسكنه. وعلى هذا المثال أجر الحال في تفقد كل واحد من الأعضاء والأخلاق أما فيما يمكن ظهوره للحمى فلا تفنع فيه حتى تشاهده بالحس وأما فيما يتعرف بالاستدلال فاستدل عليه بالعلامات الخاصة. وأما فيما يتعرف بالمسألة فابحث عنه بالمسألة. حتى

تعتبر كل واحد من العيوب فتعرف هل هو عيب حاضر أو كان أو متوقع، أم الحال حال صحة وسلامة".

الثانى: مرحلة الفحص الدقيق:

وتعتمد هذه المرحلة على خطوات مترابطة وأكثر عمقا من التحليل الظاهرى الذى تم فى المرحلة السابقة مثل:

١- جس نبض المريض.

٢- تحليل المواد الخارجة من جسم المريض كالبول والبراز والصدید والدم.

٣- الفحص الباطنى لمعرفة ما قد يكون بداخل الجسم من أصوات لها دلالة على أمراض معينة.

٤- مراقبة ما يطرأ- أو ما طرأ- على الجلد من تغييرات لها دلالاتها المعروفة.

٥- غسيل المعدة واستخراج ما فيها للتعرف على سلامة الهضم والكبد والطحال.

ج- مرحلة وصف العلاج:

تعد مرحلة وصف العلاج هى المرحلة الأخيرة فى الدراسة العملية الميدانية

وكانت تتم فى صورة الخطوات التالية:

أولاً: يأمر الأستاذ طلابه أن يصف كل منهم ما يراه مناسباً لعلاج الحالة. فإذا

أصاب أحدهم أقره وإذا أخطأ طلب من زملائه أن يصححوا له الخطأ.

ثانياً: ربما تشاور الأستاذ مع كبار الأطباء من مرافقين الذين انتهوا من مرحلة

الطلب فى وصف العلاج.

ثالثاً: يقوم الأستاذ بوصف ما يستقر عليه رأيه من علاج سواء أكان هذا العلاج أدوية مفردة أو مركبة أو يقرر إجراء مزيد من التحاليل أو يقرر إجراء جراحة. وخلال ذلك يوضح لطلابه أسباب أخطائهم والأسباب التي بنى عليها قراره النهائي.

وفى ترجمة الطبيب رشيد الدين أو حليقة الذى كان معاصراً وصديقاً لابن أبى أصبيعة صورة من صور دقة العلاج الذى توصل إليه الأطباء فى ذلك العصر فى مواجهة أمراض حصوة المثانة أو الكلى أو مجرى البول وأمراض الشلل النصفى (الفلج) وفيما يلى نماذج من ترجمته تبين دقته فى التشخيص :

من ذلك أنه مرضت دار من بعض الأدر السلطانية بالعباسية، كان من سيرته معه أن لا يشرك معه طبيباً فى مداواته وفى مداواة من يعز عليه من دوره وأولاده، فباشر مداواة المريضة المذكورة أياماً قلائل، ثم حصل له شغل ضرورى الجاه إلى ترك المريضة ، ودخل القاهرة وأقام بها ثمانية عشر يوماً. ثم خرج إلى العباسية فوجد المريضة قد تولى مداواتها الأطباء الذين فى الخدمة. فلما حضر وباشر معهم قالوا له: هذه المريضة تموت والمصلحة أن تعلم السلطان بذلك قبل أن يفاجئه أمرها بغته. فقال لهم: إن هذه المريضة عندى ما هى فى مرضة الموت، وإنها تعافى بمشيئة الله تعالى من هذه المرضة. فقال له أحدهم، وهو أكبرهم سناً، وكان الحكيم المذكور شاباً: إننى أكبر منك، وقد باشرت من المرضى أكثر منك فتوافقنى على كتابة هذه الرقعة؟ فلم يوافق. فقالت جماعة الحكماء لابد لنا من المطالعة فقال لهم: إن كان لابد لكم من المطالعة فيكون بأسمائكم من دونى. فكتب إليه الأطباء بموتها فسير إليهم رسولا ومعه نجار ليعمل لها تابوتا تحمل فيه. ولما وصل الرسول والنجار معه إلى الباب، والأطباء جلوس، قال له الحكيم المذكور: ما

هذا النجار؟ قال: يعمل تابوتا لمريضتكم. فقال له: تضعونها فيه وهي في الحياة؟ فقال الرسول: لا، لكن بعد موتها. قال له: ترجع هذا النجار وتقول للسلطان عنى خاصة أنها في هذه المرضة لا تموت. فرجع وأخبره بذلك.

فلما كان الليل استدعاه السلطان بخادم وشمعة وورقة بخطه يقول فيها: ولد الفارس يحضر إلينا، لأنه لم يكن بعد سمى أبا حليقة، وإنما سماه بذلك فيما بعد السلطان الملك الكامل، فإنه كان في بعض الأيام جالسا مع الأطباء على الباب، فقال السلطان للخادم في أول مرة أطلب الحكيم، فقال له ياخوند أى الحكماء هو؟ فقال له أبو حليقة. فأشتهر بين الناس بهذا الاسم من ذلك اليوم إلى حيث غطى نعته ونعت عمه الذى كانوا يعرفون به بنى شاكِر. فلما وصل إليه قال: أنت منعت عمل التابوت؟ فقال: نعم. قال: بأى دليل ظهر لك هذا من دن الأطباء كلهم؟ قال له: يامولانا، لمعرفتى مزاجها وبأوقات مرضها على التحرير من دونهم، وليس عليها بأس فى هذه المرضة. فقال له: أمض وطبها واجعل بالك لها. فطب المذكورة وعوفيت. ثم أخرجها السلطان وزوجها وولدت من زوجها أولاد كثيرين.

ومن جملة ما تم أيضا له أنه حكم معرفة نبض الملك الكامل حتى أنه فى بعض الأيام خرج إليه من خلف الستارة مع الأدر المرضى فرأى نبض الجميع ووصف لهم. فلما انتهى إلى نبضه عرفه فقال هذا نبض مولانا السلطان، وهو صحيح بحمد الله، فتعجب منه غاية العجب وزاد تمكنه عنده.

ومن حكاياته معه: أنه أمره بعمل الترياق الفاروق فاشتغل بعمله مدة طويلة ساهرا عليه الليل حتى حقق كل واحد من مفرداته اسما على مسمى بشهادة أئمة الصناعة أبقرات وجالينوس. وفى غضون ذلك حصل للسلطان نزلة على أسنانه فأفصد بسببها وهو يبركه الفيل يتفرج بها، فطلع إلى القلعة وتولى مداواته الأسعد

الطبيب بن أبي الحسن بسبب شغل المذكور بعمل الترياق. فعالجه الأسعد مدة والحال كلما مر اشتد، فشكا ذلك للأسعد فقال له ما بقى قدامى إلا الفصد.

فقال له: أفصد مرة أخرى، ولى عن الفصد ثلاثة أيام، اطلبوا لى أبا حليقة فحضر إليه وشكا له حاله، وأعلمه أن ذلك الطبيب قد أشار عليه بالفصد واستشاره فيه أو فى شرب دواء، فقال: يا مولانا بدنك بحمد الله نقى، والأمر أيسر من هذا كله، فقال له السلطان: إيش تقول لى أيسر، وأنا فى شدة عظيمة من هذا الألم لا أنام الليل، ولا أقر النهار. فقال له: يتسوك مولانا من الترياق الذى حمله المملوك فى البرنية الفضة الصغيرة وترى بإذن الله العجب. وخرج إلى الباب، ولم يشعر إلا بورقة بخط السلطان قد خرجت إليه، وهو يقول فيها يا حكيم، استعملت ما ذكرته فزال جميع ما بى لوقتته، وكان ذلك بحضور الأسعد الطبيب الذى كان يعالجه أولاً.

فقال له: ونحن ما نصلح لمداواة الملوك، ولا يصلح لمداواتهم إلى أنتم. ثم دخل الملك الكامل إلى خزانته، وبعث إليه منها خلعاً سنياً وذهباً متوفراً.

ومن حكاياته: أنه لما طال عليه عمل الترياق الفاروق، لتعذر حضور أدويته الصحيحة من الأفاق، عمل ترياقاً مختصراً توجد أدويته فى كل مكان. ونوى انه لا يقصد به قرباً من ملك، ولا طلب مال ولا جاها فى الدنيا، ولا يقصد به إلى التقرب إلى الله بنفع خلقه أجمعين، والشفقة على سائر العالمين، وبذله للمرضى فكان يخلص به المفلوجين، ويقوم به الأيدى المتقوسة لوقتته وساعته بحيث كان ينشئ فى العصب زيادة فى الحرارة الغريزية وتقوية وإذابة البلغم الذى فيه فيجد المريض الراحة به لوقتته، ويسكن وجع القولنج من بعد الاستفراغ، لوقتته. وأنه مر على بواب الباب الذى بين السوريين بالقاهرة المحروسة، وهو رجل يعرف بعلى، وهو ملقى على ظهره لا يقدر أن ينتصب من جنب إلى جنب، فشكا عليه حاله فأعطاه

منه شربه، وطلع القلعة وياشر المرضى وعاد فى الساعة الثالثة من النهار، فقام المفلوج يعدو فى ركابه يدعو له. فقال له: اقعد، فقال: يا مولانا قد شبت قعودا خلىنى أتملى بنفسى.

ومن حكاياته: أن الملك الكامل كان عنده مؤذن يعرف بأمين الدين جعفر حصل له حصاه سدت مجرى البول، وقاسى من ذلك شدة أشرف فيها على الموت فكتب إلى الملك الكامل وأعلمه بحاله، وطلب منه دستوراً يمشى إلى بيته يتداوى فلما حضر إلى بيته أحضر أطباء العصر، فوصف كل مهم له وما وصف فلم ينجح. فاستدعى الحكيم أبا حليقة المذكور، فأعطاه شربة من ذلك الترياق. فبمقدار ما وصلت إلى معدته نفذت قوتها إلى موضع الحصة ففتنتها وخرجت من الأرقعة وهى مصبوغى بالدواء، وخلص لوقته، وخرج لخدمة سلطانه، وأذن أذان الظهر وكان السلطان يومئذ مخيماً على جيزة القاهرة، فلما سمع صوته أمر بإحضاره إليه، فلما حضر قال له ما ورقتك؟ بالأمس وصلتنا، وأنت تقول أنك كنت على الموت فأخبرونى أمرك.

فقال: يا مولانا الأمر كان كذلك، لولا لحقنى مملوك مولانا الحكيم أبو حليقة فأعطانى ترياقاً خلصت به للوقت والحال. واتفق أن فى ذلك اليوم جلس إنسان ليريق ماء فنهشته أفعى فى ذكره فقتلته، فلما سمع السلطان يخبره رق عليه لأنه كان رؤوفاً بالخلق. ثم دخل إلى قلعة القاهرة بات بها، وأصبح من باكر والحكيم المذكور قاعد فى الخدمة عند زمام الدار على الباب. والسلطان قد خرج فوقف واستدعاه إليه، وقال له: يا حكيم أيش هذا الترياق الذى عملته، واشتهر نفعه للناس هذه الشهرة العظيمة، ولم تعلمنى به قط؟ فقال: يا مولانا، المملوك لا يعمل شيئاً إلى لمولانا، وما سبب تأخير إعلامه إلا ليجربه المملوك لأنه هو الذى أنشأه فإذا صحت

له تجربته ذكره لمولانا على ثقة منه، وإذا قد صح هذا لمولانا، فقد حصل المقصود فقال له: تمضى وتحضر لى كلما عندك منه. وترك خادما قاعدا على الباب فى انتظاره، ورجع إلى داره كأنه لم يطلع القلعة فى تلك الليلة، ولا خرج من الدار فى تلك الساعة إلا لهذا المهم خاصة. فمضى الحكيم المذكور إلى داره فوجده عنده من ذلك الترياق شيئا يسيرا، لأن الخلق كانت تقنية مما تطلبه منه فمضى إلى أصدقائه الذين كان أهدى لهم منه شيئا، وجمع منه مقدار أحد عشر درهما ووعدهم بأنه يعطيهم عوضا عنه أضعافا، فجعله فى رنية فضية صغيرة وكتب عليه منفعة ومقدار الشربة منه وحملها إلى الخادم المذكور القاعد فى انتظاره فحملها إلى السلطان ولم يزل حافظا لها، فلما آلته أسنانه دلكه عليها فحصل له منه من الراحة ما ذكر.

ومن حكاياته معه: أنه كان قد عرض لبعض جهاته مرض عجز عن مداواته فسيرت تلك الجهة تقول له أنا أعرف أن السلطان لو عرف أن فى الديار المصرية طبيبا خيرا منك لما سلم نفسه وأولاده إليك من دون كافة الأطباء، فأنت ما تؤتى فى مداواتى من قلة معرفة بل من التهاون بأمرى بدليل أنك تمرض فتداوى نفسك فى أيام يسيره وكذلك يمرض أحد أولادك فتداويه فى أيام يسيرة أيضا، وكذلك بقية الجهات التى عندنا ما منهم إلا من تداويه وتنجح مداواتك بأيسر سعى. فقال لها: ما كل الأمراض تقبل المداواه لما مات أحد. فلم تسمع فلم لى أطباء من دمشق، فاستخدم له طبيبين نصرانيين فما حضرا لمداواتها من دمشق اتفق سفر السلطان إلى دمياط، فأستودن من يمضى معه من الأطباء ومن يترك، فقال الأطباء كلهم يبقون فى خدمة تلك الجهة، والحكيم فلان وحده يكون معى. فأما أولئك الأطباء

فإنهم عالجوها بكل ما يقدرون عليه، وتعبوا في مداواتها فلم ينجح فأنبسط في ذلك عذر المذكور، وأورد ما ذكر أبقراط في تقدمه المعرفة.

ثم أنه لما سافر مع السلطان بقى في خدمته مدة شهر لم يتفق له أن يستدعيه وبعد ذلك بدمياط استدعاه ليلا فحضر بين يديه فوجده محموما، ووجد به أعراضا مختلفة يباين بعضها بعضاً فركب له مشروباً يوافق تلك الأعراض المختلفة، وحمله إليه في السحر فلم تغب الشمس إلا وقد زال جميع ما كان يشكوه، فحسن ذلك عنده جدا. ولم يزل ملازماً لاستعمال ذلك التدبير إلى أن وصل إلى الإسكندرية، واتفق أول يوم من صيام شهر رمضان إن الحكيم المذكور مرض بها، فحضر إليه الأطباء الذين في الخدمة واستشاروه فيما يحملون إلى السلطان يفطر عليه، فقال لهم: عنده مشروب قد جربه وهو يثنى عليه ويطلبه دائماً، فما دام لا يشكوا لكم شيئاً متجدداً يمنع من استعماله فاحملوه إليه، وإن تجدد لكم شيء فاستعملوا ما تقتضيه المصلحة الحاضرة.

فمضوا ولم يقبلوا منه قصداً منهم أن يجددوا تدبيراً من جهتهم، فلما جدوا ذلك التدبير تغير عليه مزاجه، فاستدعاهم واستدعى نسخة الحكيم المذكور، وأخذ يحاqqهم عليها، فكان من جملة ما فيها برز هندياً، وقد حذفوه فقال لهم لماذا حذفتم هذا البرز وهو مقو للكبد منق للعروق، قاطع للعطش؟ فقال أحد الأطباء الذين حضروا: والله ما للمماليك في حذفه ذنب، إلا أن الأسعد بن أبي الحسن نقل في بزر الهندبا نقلاً شاذاً بأنه يضر بالطحال، المملوك والله ما يعرفه، وزعم بإعادة بزر الهندبا إلى مكانة. ثم حاققهم على منفعة دواء من مفردات ذلك المشروب التي حذفوها إلى أن أعادوها وأعاد استعماله دائماً ولم يزل منتفعا به شاكرًا له.

مبادئ عامة في التدريس العملى:

من استقراء الترجمات المختلفة في الكتاب يمكن استنتاج بعض الملاحظات العامة التي يمكن تسميتها بـ «مبادئ التدريس العملى للطلاب» باعتبار التدريس العملى يتضمن العلاج كفعالية أساسية من فعاليات التعليم والتعلم :

١- استخدام لغة أجنبية في التداول بين الأطباء فقد ورد أكثر من مرة في تراجم مختلفة من الكتاب أن الكتب الطبية وبخاصة كتب أبقراط وجالينوس لم تكن مترجمة. كما تكررت الإشارة إلى أن التفاهم ربما كان يتم باللسان اليونانى أو الإغريقى. ولعل هذا الاتجاه يمكن تفسيره بعدم الرغبة في إيقاف المريض على أسرار حالته المرضية حتى لا تتدهور بما قد ينتابه من انفعالات.

٢- تدوين البيانات الخاصة بشخص المريض وعمره وتاريخ مرضه وأعراضه وأثر الوراثة- إن وجد- فى مرضه.

٣- مراقبة المريض لعدة أيام وخصوصا بعد وصف الدواء وتسجيل ما يطرأ عليه من تغييرات أو لا بأول.

٤- عدم اللجوء إلى الأدوية المركبة (أى المحضرة فى صورة مشروبات أو أقراص أو مراهم أو مساحيق.. الخ) إلا بعد انعدام الأمل فى العلاج بأدوية مفردة (كالا اعتماد على نبات معين أثبتت التجارب فعاليتها أو وصف طعام معين يفيد فى علاج الحالة).

٥- عدم اللجوء إلى الجراحة إلا عند الضرورة القصوى.

٦- التركيز على الحالة النفسية للمريض ورفع معنوياته أمر أساسى كما ينبغي الاهتمام به.

ومن أقوال الرازى التى يمكن أن تعبر عن بعض المبادئ السابقة ما يلى:

"ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبدا الصحة ويرجيه بها، وإن كانت غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس".

وقال الأطباء: الأميون والمقلدون، والأحداث الذين لا تجربهم لهم، ومن قلت عنايته وكثرت شهواته، قتالون.

وقال: ينبغي للطبيب أن لا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من داخل ومن خارج، ثم يقضى بالأقوى.

وقال: ينبغي للمريض أن يقتصر على واحد ممن يوثق به، من الأطباء فخطؤه في جنب صوابه يسير جدا.

وقال: من تطيب عند كثيرين من الأطباء يوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم.

وقال: متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل.

وقال: لا ينبغي أن يوثق بالحسن العناية في الطب حتى يبلغ الأشد ويجرب. وقال: ينبغي أن تكون حالة الطبيب معتدلة، لا مقبلا على الدنيا كلية، ولا معرضا عن الآخرة كلية، فيكون بين الرغبة والرغبة.

وقال: باننتقال الكواكب الثابتة في الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات. وقال: باختلاف عروض البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطباع الأدوية والأغذية، حتى يكون ما في الدرجة الثانية من الأدوية في الرابعة، وما في الرابعة في الثانية.

وقال: إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة. وقال: ما اجتمع الأطباء عليه، وشهد عليه القياس، وعضدته التجربة فليكن أمامك وبالضد.

الحواشي :

- (١) عبد الصبور شاهين: "ابن أبي أصيبعة. تاريخه وأثره التربوي". في الجزء الثالث من سلسلة "أعلام التربية العربية الإسلامية". (الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٨)، ص ٢٢٧-٢٤٤.
- (٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق نزار رضا. بيروت: دارت مكتبة الحياة. د.ت (صفحات متفرقة).
- (٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، بيروت: دار صادر. د.ت. المجلد السادس، ص ٢٦٨.
- (٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ط ٦ مجلد ١٣ (بيروت: مكتبة المعارف)
- (٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المجلد السابع، (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، د.ت)، ص ٢٢٩.
- (٦) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٥، (بيروت، دار الفكر، د.ت)، ص ٢٣٢٧.
- (٧) جماعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، م ١، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وآخرين (القاهرة: دار الشعب، د.ت)، ص ص ١٩٦-١٩٨.
- (*) تم الاعتماد في كتابة هذه الفقرات على:
أ- المصادر المشار إليها آنفا.
ب- المراجع الحديثة التالية:
١- سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢م) ص ص ١١٧-١٢٤.

- ٢- شوقي ضيف، عصر الدول والامارات (مصر والشام)، سلسلة تاريخ الأدب العربي (٦) (القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤) (صفحات متفرقة).
- ٣- أحمد أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٧٢م) (صفحات متفرقة).
- ٤- أحمد أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ط٨ (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٧٩)، ص ٢١.
- ٥- ٥- سعيد إسماعيل على، تاريخ التربية والتعليم في مصر (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٥)، ص ص ٢٤٦-٢٥٦.
- (**) المارستان هي تخفيف كلمة "بیمارستان" وهي كلمة فارسية معناها المستشفى مكونة من مقاطع: "بی" = بدون، "مار" = الحياة أو الحيوية، "ستان" = أرض أو مكان. فالمعنى الحرفي للكلمة هو: مكان غير الأصحاء، وكانت تطلق قديماً على أى مستشفى ثم صارت مقصورة على مستشفى المجاذيب.
- (٨) المقریزی، المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٤ (القاهرة: مكتبة النيل، ١٣٢٤هـ)، ص ٢٥٧.
- (***) حققه الباحث ودرس فكره التربوي من خلاله ونشره عام ١٩٨٩ م في مجلة كلية التربية بسوهاج.
- (٩) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، ج١٢ (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٧م)، ص ٨٣، ٨٤.
- (****) تشغل هذه الترجمة خمس عشرة صفحة من الكتاب ص ٧٣٦-٧٥٠.
- (١٠) ذكرت دائرة المعارف الإسلامية هذا التاريخ (٧٥٩هـ) ولعله خطأ مطبعي.
- (١١) عبد الصبور شاهين، مرجع سابق، ص ص ٢٢٧، ٢٢٨.
- (١٢) جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣، (بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٧٣) ص ١٦٧.
- (١٣) جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣ (بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٨٣) ص ١٦٧.

- (١٤) خير الدين الزركلى، الأعلام. ط٧ (بيروت: دار الـ للـ، ١٩٨٦) ص ١٩٧.
- (١٥) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، ج٦، ط٢، (ترجمة السيد يعقوب بكر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣) ص ٤٨.
- (١٦) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ح٢ (بيروت: دار احياء التراث العربى، د.ت)، ص ٤٧.
- (١٧) لا نستبعد أن يكون كحالة قد اعتمد على الزركلى فى هذا التاريخ لأننا لاحظنا أن هناك عبارات منقولة حرفياً، ومن المعروف أن كتاب الزركلى أسبق وجوداً من كتاب كحالة فالأول بدأ العمل فيه سنة ١٩١٢ م والثانى نشر سنة ١٩٥٧ م.
- (١٨) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، مرجع سابق، ص ٢٢٩، وقد سماه عبد الصبور شاهين فى مقالته «النجوم الزهراء» وهذا غير صحيح.
- (١٩) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ج ١١، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٤)، ص ١٤٣، وترجمة السويدى هذا فى كتاب ابن أبى أصيبعة ص ٧٥٩.
- (٢٠) ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، مرجع سابق، ص ٢٤١.
- (٢١) منطقة صغيرة (نيابة تابعة لدمشق)
- (٢٢) يقال أنه عاش قبل الطوفان ويكتب بالإنجليزية هكذا Esculape.
- (٢٣) يكتب اسمه بالإنجليزية هكذا Hippocrate وقد توفى سنة ٣٥٧ ق. م والعرب يسمونه أبى الطب.
- (٢٤) هو على بن الحسين بن هندو من أكبر المتميزين فى العلوم الحكيمية والطبية، والفنون الأدبية وهو من طبقة الأطباء الذين ظهرُوا فى بلاد العجم.
- (٢٥) وهو الحسن بن سوار المعروف بأبن الخمار وكان نصرانيا عالماً بأصول الطب وفروعه وله مصنفات جلييلة. وقد نقل كتباً كثيرة من السريانى إلى العربى. ولد سنة ٣٣١ هـ.
- (٢٦) الخرق (بفتح الخاء والراء): الحمق.
- (***** انظر فى ذلك:

- أحمد أحمد بدوى، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية، مرجع سابق.
- ابن أبى أصيبعة ، مرجع سابق.
- شوقى ضيف، مرجع سابق.

(*****) ما يزال المصريون- فى الريف خاصة- يطلقون لفظ الحكيم على الطبيب.

(٢٧) طبيب مصرى ولد بالجيزة من أسرة فقيرة واعتمد على نفسه- كما قال عن نفسه من سن الرابعة عشرة حتى الثانية والثلاثين وأتقن الطب حتى صار طبيباً مشهوراً وله عشرات المؤلفات وقد أصيب بلوثة عقلية فى آخر حياته بسبب أنه كان قد تبنى يتيمة خلال أزمة غلاء طاحنة أرهقت مصر سنة ٤٤٥هـ وكانت الشيوخوخة قد طحنته فهربت اليتيمة بعد أن سرقت منه ثروة كان يـدخـرها لشيخوخته مقدارها عشرون ألف دينار من الذهب. ثم توفى رحمة الله سنة ٤٥٣هـ (عيون الأنباء ص ص ٥٦١- ٥٦٧).

(٢٨) الرازى هو أبو بكر محمد بن زكريا بن يحيى ولد بمدينة الرى ثم انتقل إلى بغداد وهو فى نحو الثلاثين من عمره، وقد تعمق فى دراسة الفلسفة والكيمياء والطب وعرف عنه حبه للفقراء وسعيه لنشر الثقافة الصحية بين العامة وعندما طارت شهرته عينة الخليفة المعتضد بالله كبيراً لأطباء مدينة بغداد، فظل فى هذه الوظيفة نحو أربع سنوات ثم عاد إلى الرى وقد ترك تراثاً علمياً هائلاً أهمه كتابه (الحادى) الذى جمع فيه كل ما كان قرأه من علوم السابقين فى الطب. ويبدو من حديث ابن أبى أصيبعة عنه أنه كان يعرف السريانية واليونانية. وقد توفى عام ٣٢٠هـ (ص ص ٤١٤- ٤٢٧).

(٢٩) مهذب الدين عبد الرحيم بن على هو أستاذ ابن أبى أصيبعة أو أحد اساتذته الذين سجل إعجابه بهم. ولد بدمشق واشتهر بها وكان من كبار الأساتذة فى بیمارستان فى دمشق وله صلات طيبة بالملوك المتعاقبين. وله عدة مؤلفات ذكرها ابن أبى أصيبعة. توفى سنة ٦٢٨هـ. (ص ص ٧٢٨- ٧٣٦).

(٣٠) أحمد بن فارس لغوى ونحوى على طريقة الكوفيين ولد فى جهة كبرسف وجيانابان وهما قريتان من رستاق الزهراء وتوفى فى الرى (١٠٠٤) أشهر كتبه "المجمل فى اللغة".

(٣١) هو فخر الدين أبو عبد الله محمد بن العمر بن الحسين الرازى المعروف بابن خطيب الرى نبغ فى علوم كثيرة منها التفسير وتفسيره الشهير "مفاتيح الغيب" من التفاسير المتميزة، كذلك نبغ فى علوم الكلام والفقه والفلسفة واشتهر بقوة حجته وردوده المفحمة على المعتزلة وغيرهم. وتوفى عام ٦٠٦ هـ. وقد يشار إليه أحيانا بلقب: الفخر الرازى فقط.

(راجع: ابن أبى أصيبعة ص ص ٤٦٢ - ٤٧٠).

(٣٢) محمود الطناحى، الموجز فى مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم (القاهرة: مكتبة الخانجى، ١٩٨٥)، ص ٦٤.

(٣٣) ابن أبى أصيبعة، ص ٤٢١.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٥٦٥.